إعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق

للدكتور

سليم عادل عبد الحق

مدير الآثار العام في سورية

١ — مقدمة :

انتهت أعمال إعادة تشييد جناح من قصر الحير الغربي في متحف دمشق ، بعد أن دامت أربعة عشر عاماً ، بذلت خلالها مديرية الآثار العامة كل ما بوسعها من جهود لمتابعتها ، حتى تمكنت في اليوم الثامن والعشرين من شهر آب لسنة ١٩٥٠ ، أن تحتفي بانجازها بحضور حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية المعظم ، وحضرات رئيس مجلس الوزراء والوزراء ، وأعيان الدولة ، ولفيف من اخواننا المغتربين الكرام في أمريكا الشمالية الذين كانوا يزورون بلادهم الأصلية آنئذ .

وقد فاقت نتائج هذه الأعمال الفنية ما كنا نتصور . إذ أننا تمكنا أن نقدم الى العالم مفخرة كبيرة عن مفاخر علم الآثار السوري الفني . ونحن مطمئنون إلى أن الأوساط العلمية الدولية ، ستستقبلها بما تستحقه من تقدير واهتمام ، وستعطف على تجاربنا التي تضمنتها ، ودراساتنا المختلفة والمتنوعة في فنون العمارة والنحت والتصوير ، وحلولنا لمختلف القضايا التي وضعت أمامنا . ولا يخفى أننا مدينون باعادة تشييد هذا البناء ، الذي يطاول الجوزاء بأبراجه والذي تطل علينا من عليائه ثلاثة عشر قرناً من التاريخ العربي المجيد ، إلى عبقريات الأثريين والمهندسين والمعماريين والنحاتين والدهانين والمصورين والعمال السوريين وغيرهم ، التي طوت القرون ، والتقت في

عالم الالهام بعبقريات الأجداد ، فاصغت إلى دروسها ، واستوحت اسرارها ، واستعادت منها أحلامها . ثم سبكت كل ذلك أشكالا ورؤى هي الأشكال والرؤى التي نعمت بها عينا هشام ابن عبد الملك ، وقرّت بها نفوس أمراء وأميرات بني أمية في فاتحة القرن الثاني الهجري . وأخص من هؤلاء الفنيين بالثناء ، أسلافي مديري الآثار العامين ، ولاسيما الأمير جعفر الحسني ، الذي لم يأل جهداً بالتحمس لهذا المشروع الجبار والسعي إلى تحقيقه بكل ما كان لديه من صلاحيات ، ثم أخص السيد دانيل شلومبرجه الذي أشرف على حفريات القصر ، والسيد جان ايكو شار الذي رسم واجهته الخارجية ، والسيد نسيب صليبي الذي رافق بقية الأعمال ، وسهر على تنفيذها من فاتحتها إلى خاتمتها .

وضعت فكرة إعادة تشييد جناح من قصر الحير الغربي على بساط البحث منذ اكتشافه في سنة ١٩٣٦ ، وثبات نسبته إلى عاشر خلفاء بني أمية ، وأية مدينة أحرى من دمشق ، وهي عاصمة الأمويين ، ومهد الحياة الابداعية العربية ، ومقر آية الآيات في العمارة الدينية الأموية ، وأعني بذلك المسجد الأموي ، أية مدينة أجدر منها ، وهي التي أسست قواعد الفن الأموي ، ووضعت أصوله ، أن تضم آية الآيات في العمارة المدنية الأموية ، الذي هو أجمل قصر اكتشفه الباحثون في بادية الشام بعد أن عثروا على خرائب وأطلال نحو ثلاثين قصراً آخر [1] .

---

(١) للاطلاع على أسماء ومواقع وصفات هذه القصور انظر في المصادر المختصرة الآتية :

Jaussen et Savignac, Mission archéologique en Arabie, T. III. p. 19 et s.
A. Gabriel, Kasr-el-Heir, Syria 1927, p. 302 et s.
V. Creswell, Early Muslim Architecture, T. I.
P. Schlumberger, Les fouilles de Qasr el-Heir el-Gharby (1936 — 1938), 2 rapports préliminaires. Syria T. XX. 1939.
D. Baramki; Excavatious At Khirbet el-Mifjer, Quarterly Dep. Ant. Palestine, V. P 132; VI, p. 51; et WIII, p. 51.
J. Sauvaget: Remarques sur les monuments Omeyyades, Journal Asiatique, Janvier — Mars 1939 p. 1 et s.
H. Stern: Notes sur l'architecture des chateaux Omeyyades, Ars Islamica T. III.

أما المصادر العربية التى طرقت هذا الموضوع فهي كما يأتي :
الأستاذ محمد كرد على : خطط الشام . الجزء الخامس ص ٢٨٠ — ٢٨٢ .
الأمير جعفر الحسني : قصور الأمويين في الديار الشامية . مجلة المجمع العلمي العربي ١٠ أيار وحزيران ١٩٤٢ ص ٢١٤ — ٢٣٠ .
دانيال شلومبرجه : قصر الحير الغربي . طبع (المكشوف) ، تعريب الياس أبي شبكة بيروت ١٩٤٥
الدكتور زكى محمد حسن : القصور الأموية في بلاد الشام ، مجلة الكتاب المجلد الاول ص ٣٧٤ — ٣٧٧
عمر أبو النصر : الحضارة الأموية العربية بدمشق ، بيروت ١٩٤٨ ، ص ٣٧٤ — ٣٧٧ .

٢ — المنشآت العمرانية في عهد هشام

ولم تكن هذه القصور الحضرية — البدوية كالمنشآت العسكرية الرومانية أو كالمنشآت الدينية البيزنطية التي نثرت هنا وهناك على أطراف البادية، وعلى تخوم الفرات. إذ أنها تختلف عنها بمفاهيمها التي تنص خاصة على إعمار الصحراء، وإنبات الحياة فيها، وإيواء الخلفاء الأمويين الذين احتفظوا بطباعهم العربية، وظلوا يحنون إلى البوادي التي أنبتتهم قبل مجيئهم إلى بلاد الشام، ويتشوقون إلى حياة التبدي فيها. لهذا فإنهم كانوا يتركون دمشق عاصمتهم بين حين وآخر إلى الفضاء الأفيح، ليتمتعوا بلذة الصيد، ويتلقوا اللغة الصحيحة عن ألسنة الأعراب، ويلتقوا بزعماء القبائل العربية، ويبتعدوا عن تقشف المدينة، ويستسلموا إلى حياة الأنس والدعة. فكان من الواجب أن تفي هذه المنشآت بتوزيعاتها وأشكالها الداخلية والخارجية بكل ما تتطلبه الأغراض المتقدمة.

ومما لاريب فيه أن بناء هذه القصور كان جزءاً من البرنامج العمراني الذي اختطه الخلفاء الأمويون في تجهيز بلاد الشام وهي القلادة بين ولايات أمبراطوريتهم الواسعة، بكل ماتحتاج اليه من منشآت دينية، وعمرانية، او مدنية. وكان هذا البرنامج أمبراطورياً حقاً. وقد أخلصوا فيه كل الإخلاص حتى لامهم الناس على ذلك. ويذكر أنه لما قتل الوليد الثاني، خطب يزيد الناس فذمَّه وقال: «أيها الناس! إن لكم علي أن لا أضع حجراً على حجر ولا لبنة، ولا أكتري نهراً، ولا أكثر مالا، ولا أعطية وولداً، ولا أنقل مالاً عن بلد، حتى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم، فما فضل نقلته إلى البلد الذي يليه» [١].

وكان هشام بن عبد الملك من أكثر الخلفاء الأمويين حباً لإظهار مكانة الأمبراطورية. إذ أنه على بساطة طباعه كان شغوفاً بتبيان العظمة العربية، وشاعراً شعوراً مرهفاً بالمسؤوليات المتوجبة على من يتولى عرش معاوية، وعبد الملك، والوليد. لهذا فقد أثر عنه أنه كان من أعظم الأباطرة البنائين الذين كانت لهم الباع الطولى في إنشاء المدنية العربية ونقل فنونها من حال الى حال. وتذكر لنا الروايات التاريخية أنه بنى الربض وحصن المثقب على يد حسان بن ماهوية الانطاكي [٢] وحصن موره على يد رجل من أهل انطاكية، وحصن بوقا من عمل انطاكية [٣]. وبنى قصراً في القطيفة [٤] وقد وصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك فقال: «إنها

(١) ابن الأثير، كامل التواريخ، الجزء الخامس ص ١٠٨.
(٢) أبو الحسن البلاذري: فتوح البلدان ص ١٦٩ — ١٧١. ولا يعرف أين موقعها.
(٣) » » » » » » » »
(٤) تاريخ اليعقوبي، ص: ١١٢.

دار قوراء مفروشة بالرخام ، وهو في مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك[١] . ثم أنه كان ينزل في الزيتونة في بادية الشام فلما عمّر الرصافة ، انتقل إليها فكانت منزله إلى أن مات[٢] . وفي رواية أخرى أن الخلافة أتته وهو في الزيتونة في منزل له فجاءه البريد بالعصا والخاتم ، فسلم عليه بالخلافة ، فركب من الرصافة حتى أتى دمشق[٣] . وفي رواية أخرى انه بنى في الرصافة قصرين[٤] . وقد ذكر المؤرخ جان سوفاجه بعد مقابلته هذه النصوص الأخيرة ، إن المقصود من كلمة الرصافة ، ليس الرصافة الحالية مدينة (سرجيوبوليس) التي يعود عهد بنائها الى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، بل منطقة قصر الحير الشرقي حيث وجد قصران ، الأول قصر صغير مربع طول ضلعه (٧٠ م) ، والثاني قصر كبير وطول ضلعه (١٧٠ م)[٥] . ويظن أنهما القصران اللذان بناهما هشام . ويؤيد ذلك أن منطقة قصر الحير الشرقي أشبه بمدينة ملحقة بهذين القصرين ، وانها كانت معدة لسكنى حاشية الخليفة وضيوفه . وقد عثر في القصر على كتابة نقلها (جاك روسو) إلى حلب ، ولم يعرف ماذا حل بها ، وهذا هو نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد رسول الله ، أمر بصنعة هذه المدينة عبد الله هشام ، أمير المؤمنين وكان هذا من عمل أهل حمص على يد سليمان ابن عبيد »[٦] . وهذا ما يدعو إلى القول إن الزيتونة والرصافة اسمان لمكان واحد وهو منطقة قصر الحير الشرقي ، وأنه كانت فيها ، لهشام قبل أن يولى الخلافة ، قرية متواضعة ، وأنه بعد أن صار خليفة حول هذا المكان الى عاصمة ادارية تليق أن تكون مقراً للحاشية ورجال الدولة .

ونحن نستبعد هذا الرأي . إذ يصعب معه تعليل توقف اطلاق اسم الرصافة على منطقة قصر الحير الشرقي ، وإطلاقه على مدينة (سرجيو بوليس) أي الرصافة الحالية . فمنذ أي تاريخ

---

(١) انظر : محمد كرد علي ، خطط الشام ، الجزء ، الخامس ، ص : ٢٨٠

(٢) الطبري ، الجزء الثامن ، ص : ٢٩٢ ، والأصبهاني ، كتاب الأغاني ، الجزء الثاني ، ص : ٨٠

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ص ٢٣٣ ، الطبري الجزء الثامن ، ص : ١٨٠ : » .

(٤) يذكر البلاذري : « ان هشاما كان يقيم في الرصافة وهي صحراء ، وكانت مدينة بناها الروم ، وفيها آبار وقناة للماء تأتيها من الصحراء ، وقد تخربت وأصلحها هشام وبنى فيها قصرين » .

(٥) J. Sauvaget : Francesco Gabrieli, Il califato di Hisham, studi di storia Omayyade (Mém. de la Soc. Royale d'Archéologie d'Alexandrie, t.VII, 2). Bulletin d'Etudes Orientales. Tome V. Année 1935. p. 136 — 137.

J. Sauvaget: Les ruines Omeyyades du Djebel Seis. Syria 1935. p. 239 — 254.

« « : Remarques sur les monuments Omeyyades, Jour. Asiat. Janvier — Mars 1939 p G et s.

(٦) انظر مقال المسيو غابريل الذي درس فيه قصر الحير الشرقي : A. Gabriel : Syria Tome V p. 1307-332.

جرى ذلك وإذا قيل إن هذا الاسم كان لمكانين او أكثر لجاز لنا أن نتساءل ومتى تعددت الأماكن التي تدعى باسم الرصافة . كما أنه لاتوجد أية وثيقة خطيـة تشير إليه . فضلاً عن أن جملة (صنعة هذه المدينة) التي وردت في النص المتقدم لا تكفي للقول ان هذه المدينة هي مدينة الرصافة ، ثم أن جميع الأوصاف التي يطلقها المؤرخون العرب على الرصافة تتحقق في مدينة الرصافة الحالية [١] . ولم تجر فيها حفريات بعد للتحقق من وجود آثار قصري هشام وغيرها من المنشآت الأموية . غير أنه مما لا شك فيه أن أنحاءها مملوءة بآثار منشآت كثيرة بعضها بيزنطي وبعضها عربي . والمستقبل كفيل باظهار كل ذلك . أما الزيتونة فلا يوجد ما يؤيد لنا أنها كانت قرية متواضعة . ويحتمل أن يكون موقعها في منطقة قصر الحير الشرقي لقرب هذا الموقع من الرصافة ، كما يحتمل أن يكون في قصر الحير الغربي أو في خربة المفجر . فقد كشفت الحفريات المتأخرة التي جرت في هـذه المواقع على أن هشام بن عبد الملك قد قام بنصيب كبير من أعمال الإنشاء التي حدثت فيها [٢] .

ونستنتج من النصوص المتقدمة أن حسان بن ماهوية الانطاكي ، وسلمان بن عبيد ، وثابت ابن أبي ثابت [٣] هم الذين كان يعهد هشام اليهم بأعمال منشآته . وأكبر الظن أنهم كانوا المهندسين المعماريين المشهورين في عصره ، ويرى بوضوح أن أسماءهم عربية ، وأنهم كانوا من بلاد الشام . فهم والحالة هذه جيل من المهندسين اقتضت ظهورهم سياسة الانشاء الواسعة التي نهض الخلفاء بأعبائها ، وأن العمارة العربية لم تكن في ذلك الحين ، كما يحاول أن يثبت كثير من مؤرخي الفن الغربيين ، مزيجاً من عناصر متفرقة بيزنطية ورومانية وساسانية ، وانما كانت هنالك عمارة عربية قوية مترفة في الجدة ، تستوحي بعض نظراتها من فنون البيزنطيين والرومان والساسانيين وغيرهم شأن استيحاء كل فنون البناء الكبرى في العالم من غيرها كما سيأتي معنا في حينه .

٤ — مفهوم البادية في العهد الأموي

ويقع قصر الحير الغربي في منطقة التقاء طريقين مهمتين في البادية ، أولاهما طريق دمشق — تدمر التي تمر على القريتين . وهي طريق تجارية قديمة يرقى عهدها إلى أول الأزمنة التدمرية ، وثانيتهما طريق حمص — الجوف . ويظن أنها أقدم من الأولى ، وتسلكها القبائل أثناء تطوافها

(١) إن أحسن ما كتب عن الرصافة متضمن في كتاب ألماني هو : Sponner et Guer, Rusafa Berlin 1926

(٢) كما يحتمل أن يكون هذا الخليفة قد قام بانشاء بعض القصور الأخرى في البادية .

(٣) هو اسم المهندس الذي بنى الخان الواقع بالقرب من قصر الحير الغربي كما تدل على ذلك عتبة بابه التي نقش عليها مايلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا آله إلا الله وحده لاشريك له ، أمر بصنعة هذا العمل عبد الله هشام أمير المؤمنين أوجب الله أجره ، عمل على يد ثابت بن ثابت في رجب ، ١٠٩ هـ »

في أطراف البادية ، كما تسير عليها الحيوانات المهاجرة . فهي مهمة جداً في تنظيمها نسق الفصول في حياة الصحراء [١] . وتسير في أرجائها مياه الوادي الذي يحده قبل أن يصل إلى قصر الحير جداران مرتفعان . ثم يتفرع هذا الوادي وينبسط بعد أن يمر بالقصر . وتصبح مياهه ذات عمق قليل جداً . ويظهر أن هذه المنطقة الممتازة سكنت منذ مدة طويلة . إذ أنه فيها معالم تدل على أنها جذبت إليها الانسان في العصور الرومانية ، والبيزنطية ، والأموية ، والأيوبية ، وفي زمن المماليك والقرون الحديثة . وما ذلك إلا لأنها واحة ، تربتها خصبة ، ويمكن استثمارها في الزراعة وللسكن .

ويستحسن أن نوضح أن المنشآت المعمارية التي أقيمت في هذا المكان في عهد هشام لم تكن تقام في أي مكان يتبدى فيه ، في زمنه أو في زمن غيره من الخلفاء الأمويين . إذ أن البادية كانت تقتصر أحياناً على سرادق أو عدة سرادقات [٢] . ثم تطور مفهومها فصارت تحوي قصراً وحماماً ومسجداً . وقد أوضح هرزفيلد أن بناء الحمام وبناء المسجد سبقا بناء القصر . لأنه لا يخفى أنه يمكن للمرء ، أن يتمتع بكل أنواع اللذات والراحة تحت السرادق ، ما عدا لذة التحمم التي لا تنال إلا إذا شيد مكان خاص لذلك . ثم أنه إذا أكملت البادية لوجب أن تضم قصراً للأمير [٣] . وأحسن مثال يورد على نموذج البادية الكاملة ، قصر المشتى الذي شيد في زمن الوليد على اكبر الظن . أما المرحلة المتوسطة التي لم تبلغ التمام فتتجلى خاصة في قصير عمرة الذي كان قصراً وحماماً بآن واحد .

وقد جمعت هاتان المرحلتان في قصر الحير الغربي . ويذكر شلومبرجه أن الأمويين اعجبوا بموقعه . فنظموا في بادئ الأمر سقايته ، وذلك بأن أنشأوا البحيرة الاصطناعية في سد حربقة ، وخطوا القناة التي تحمل المياه وبنوها ، ثم جددوا آبار الدير البيزنطي الذي كان هناك والذي لم يبق منه إلا برج واحد في الجهة الشمالية الغربية ، وعتبة باب المدخل وسوف يأتي الكلام عنها [٤] . وعلى هذا فإن قصر الحير الغربي في شكله النهائي هو أكمل نموذج لبادية أموية معروفة في وقتنا الحاضر . أضيفت فيه منشآت السكن إلى الأراضي الزراعية ، فغدت مكاناً لإقامة الخليفة وموطناً للهوه وموعداً لصيده ، ومنطقة لعدد من المزارعين الذين يستثمرون الأراضي الخصبة المجاورة . وكان شأنها في ذلك شأن خربة المفجر ، وقصر الحير الشرقي ، وجبل أسيس ، وقصر الأبيض ، وقصر التوبة وغيرها . وأكبر الظن أن هذه الأراضي الزراعية وما يتعلق بها

---

(١) شلومبرجه : حفريات قصر الحير الغربي ، سيريا ، الجزء العشرين ص : ٣٦٠ .

(٢) H. Lammens, La Bâdia et la « Hîra », (dans le siècle des Omeyyades, Beyrouth, 1930).

(٣) Herzfeld, Mschatta, Hîra und Bâdiya في Jorrb. d. Preuss. Kunstsamml. ,XLII, 1921.

(٤) شلومبرجه ، المصدر السابق ، ص : ٣٦٣ .

من المنشآت وجدت في بقية المواقع من البادية التي عثر فيها على أطلال من العهد الأموي .

وخلاصة القول إن ميزة البادية الأموية الأساسية هي اجتماع عدة أبنية حول قصر ووقوع هذه الأبنية ضمن حقول زراعية واسعة تجتازها اقنية الماء . ولا ريب أن الأبنية التي كانت تجتمع حول القصر كانت تستخدم لسكن المزارعين الذين يستثمرون هذه الأراضي .

٥ — قصر الحير الغربي ولواحقه (١) :

ولكي تتوفر لنا فكرة تامة عن بادية قصر الحير الغربي ، يجدر بنا أن نبحث في الأمور الآتية :

آ — سد حربقة ، ب — القناة بين السد ومنطقة السكن ، ج — مصنع المياه ، د — بستان القصر ، ه — الخان ، و — القصر .

٦ — سد حربقة :

وذكرنا أن منطقة الاستثمار الزراعية مدينة بوجودها خاصة الى سد حربقة الواقع على بعد ستة عشر كيلومتراً ونصف الكيلومتر جنوبي قصر الحير ، ويعود عهد بنائه إلى الزمن الروماني الذي نظم تنظيماً علمياً ، طرق استثمار هذه المنطقة لأول مرة . ويقع هذا السد على الطرف الشمالي لجبل الرواق ، ويتألف من بناء عظيم محصور بين جدارين من أحجار ضخمة مرصوفة على صفوف متوازية منتظمة ، يتأخر كل صف عن الآخر شيئاً قليلاً . وما بين الجدارين أحجار كبيرة وصغيرة غير منتظمة موضوعة أيضاً على صفوف ، ومتماسكة مع بعضها بالملاط . أما سطح السد العلوي فيبلغ ارتفاعه أربعة أمتار ، وكان يشبه طريقاً معبدة . وقد تهدمت أجزاء هذه الطريق الآن ، ولم يبق منها إلا بعضها .

وكانت للسد ثلاث فتحات ، اثنتان منها مبنيتان من الحجر ولهما مقطعان مستطيلان . أما الفتحة الثالثة فهي أنبوب ضخم من الفخار المطبوخ ، ذو قطر ضيق ، ويخترق السد بانحدار شديد . أما البحيرة الاصطناعية التي كانت وراء السد فقد زالت وامتلأت أرضها بالرسوبات ، وما تزال حدودها ظاهرة المعالم ، ولا سيما بعد تهطال الأمطار . وهي تزرع الى الآن ، وتتميز بلونها الغامق عن الهضاب التي تحيط بها . وكان طولها نحو (١٥٥٠ متراً) ، وعرضها (٨٠٠ متر) .

٧ و ٨ - القناة بين السد وبين منطقة السكن ، ومصنع المياه :

أما القناة التي تصل سد حربقة بمنطقة قصر الحير الغربي ، فإنها تجري تحت الأرض . غير أنه يمكن تمييز اتجاهها بسهولة . وتوجد لها محطة بعد السد بأربعة كيلومترات ، ثم

---

(١) نعتمد في وصف قصر الحير ولواحقه خاصة على دراسة شلومبرجه التي مر ذكرها .

تتفرع منها بعد مسافة صغيرة من هذه المحطة قناة صغيرة مربعة تسير الى الحمام والى القصر . ونلاحظ أنه وجدت في غربي القناة ، معالم لأربعة أفران كانت تصنع فيها قطعات الآجر ، والجص اللازمة لأعمال بناء القصر . وتنتهي القناة الرئيسية بعد ستة عشر كيلومتراً ونصفاً من سد حربقة ، في بركة مربعة تقريباً ، ضلعها نحو (٦٠ متراً) ، وعمقها نحو (٣و٦٥ أمتار) . وأخيراً يتفرع من هذه البركة أنبوبان فخاريان ينتهيان بحوض يشبه مصنعاً للمياه ، ويمكن الانحدار اليه بسلم . وبعد هذا المصنع تعود القناة إلى الاختفاء ، وتتجه نحو البستان ويجري منها فرع صغير يمر على طاحونة ، لم يبق منها إلا بعض آثارها . ويظن أنها كانت كالطواحين القديمة التي ما زالت ترى إلى اليوم في بعض أنحاء سورية . ويعود هذا الفرع بعد خروجه من الطاحونة فيتصل بالقناة الأصلية .

٩ — البستان

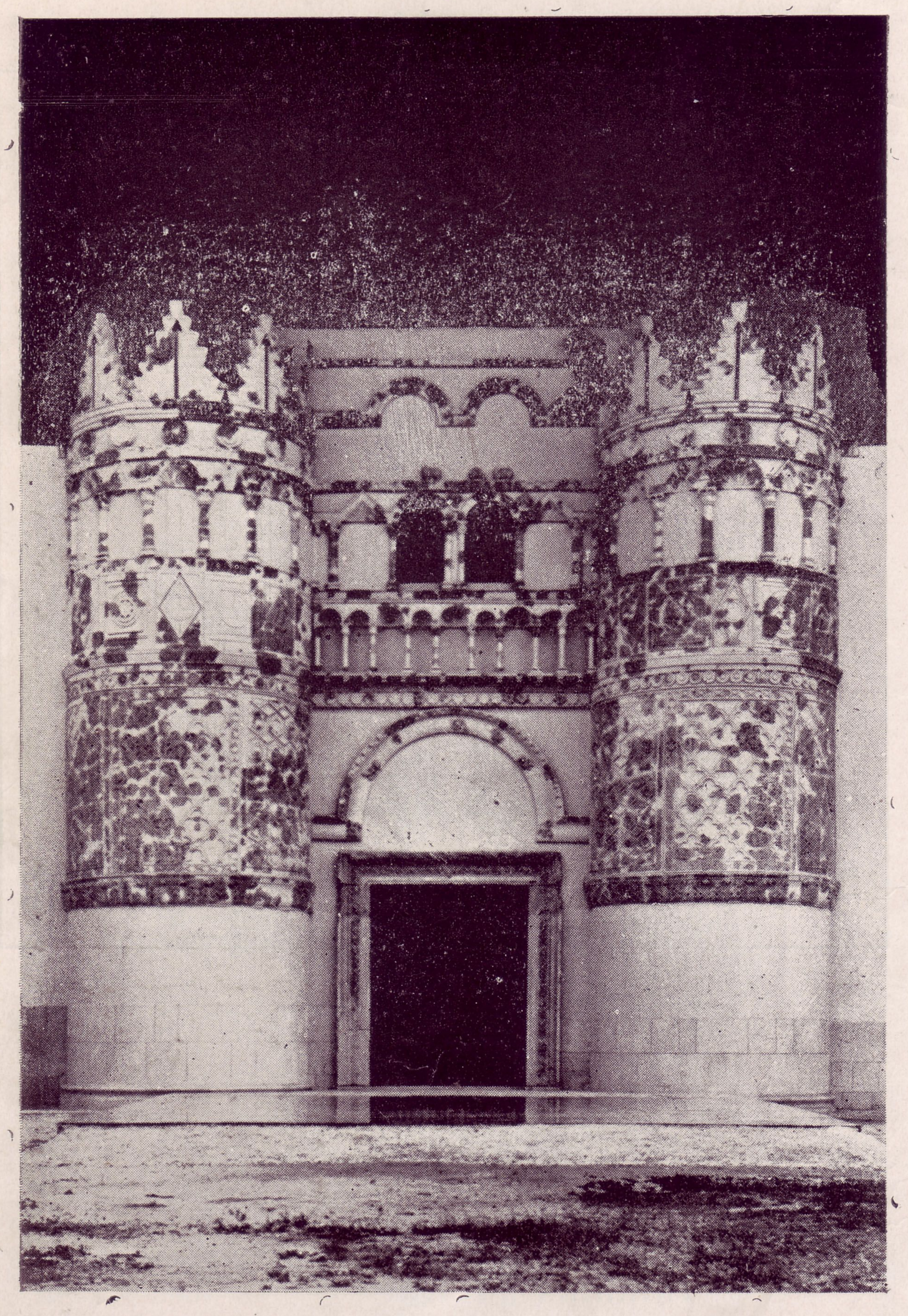
ويشبه البستان الذي تنتهي اليه القناة شكل شبه منحرف قريب من المستطيل ، طوله (١٠٥٠ متراً) وعرضه (٤٤٢ متراً) . وكان يوجد حوله جدار بناؤه من الطوب ، لهذا فإنه زال ولم تبق منه إلا قاعدته المشيدة من الأحجار الجصية المنحوتة نحتاً جيداً . وتسند هذا الجدار دعائم نصف اسطوانية متوزعة على مسافات متساوية ، منظمة تارة من جهة داخل البستان ، وتارة من خارجه .

وللبستان مدخلان ، الرئيسي منهما في زاويته الشرقية . وهو على هيئة بناء صغير مستطيل راكب على الجدار ، وفي طرفيه برجان صغيران . ويتألف من دهليزين متتابعين فيهما مصاطب جانبية . وفي داخل البستان الى يمين هذا المدخل يوجد بناء صغير كان يقطن فيه البستاني . أما المدخل الثاني فيقع في الجهة الشمالية — الشرقية . وتمر القناة الى البستان قرب المدخل الرئيسي وتجتاز أرض البستان بعد أن تتوزع الى أقنية صغيرة كانت مشقوقة في التراب ، وقد زالت الآن ، إلا أن موزعاتها الحجرية بقيت ، وهذا ما ساعد على التعرف على شكل شبكة السقي . واتضح أنه كان يخترق البستان طولانياً خمسة أقنية ، وعرضانياً خمسة أخرى ، وأن الأقنية الطولانية تلتقي بالعرضانية بواسطة الموزعات المذكورة ، وتقسم سطح البستان الى عدد من المربعات ، وأن هذه المربعات كانت تسقى واحداً بعد واحد .

والثابت أن العصر الأموي هو الذي أنشأ القناة ، وابتكر كيفية سقاية البستان . ولا يعرف إذا وجدت في العصور المتقدمة قناة بدلاً من هذه القناة أم لا .

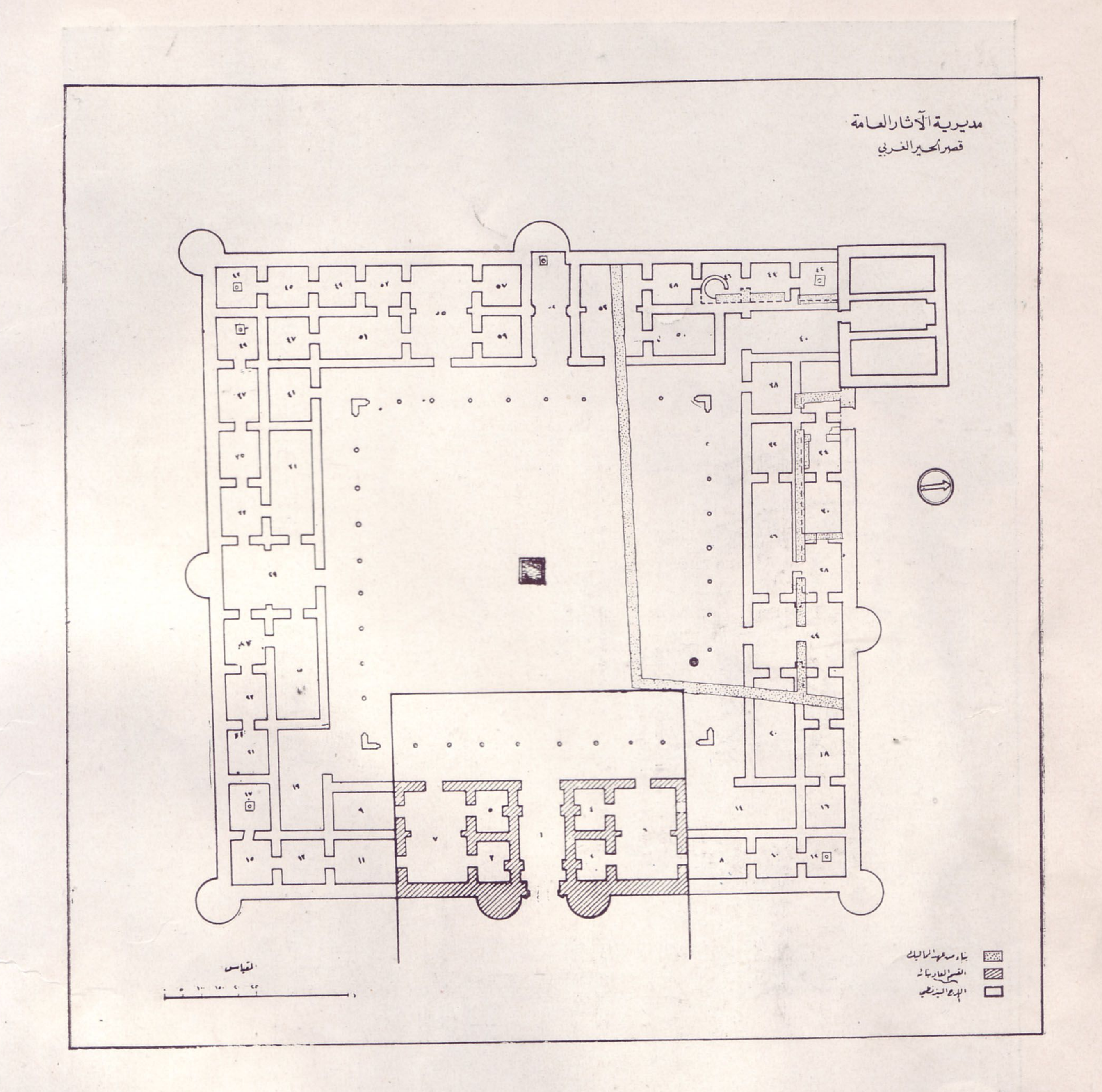
وفي البستان سد يتألف من جدار ، وسط مجرى الوادي ، وله وجهان جانبيان . وهو مبني من الحجر على شاكلة قاعدة سور البستان ، وتدعمه أبراج صغيرة شبه اسطوانية ، وكان له

اللوح - ١ -

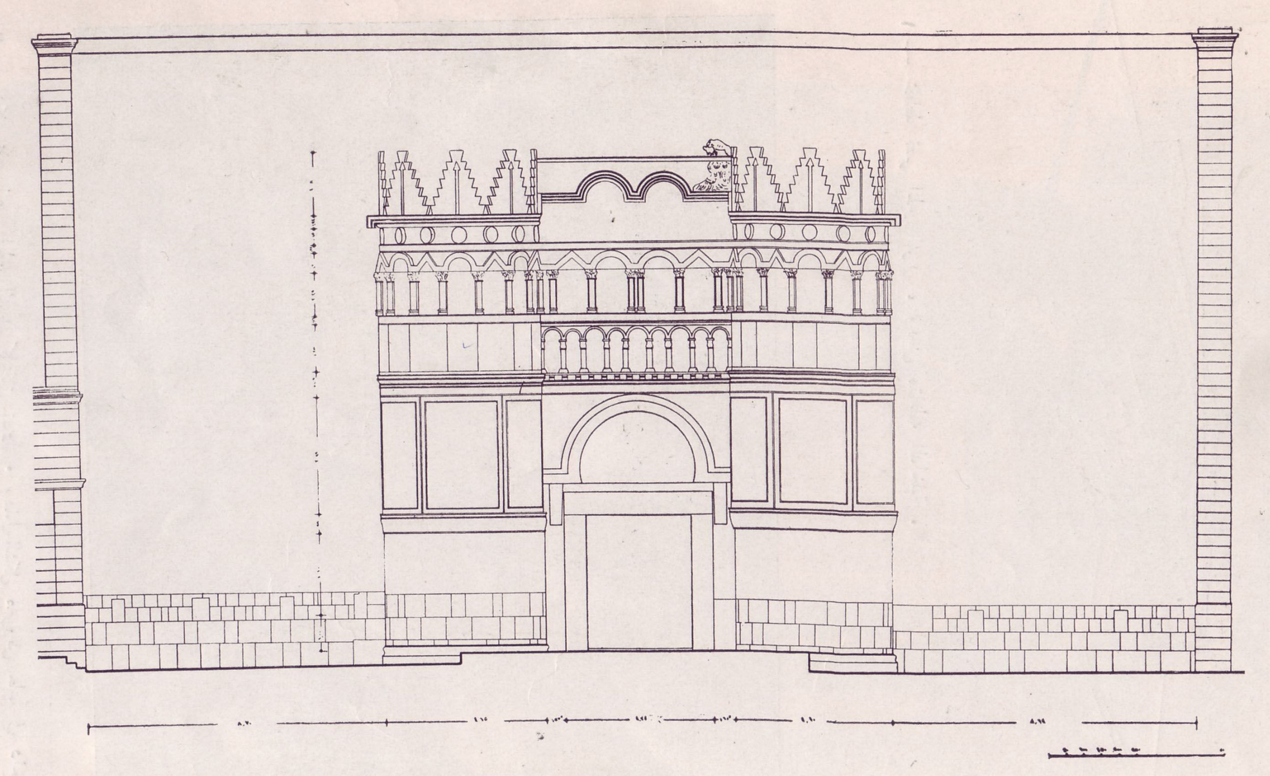


منظر الواجهة الخارجية لقصر الحير الغربي ، بعد إعادة إنشائها في متحف دمشق .

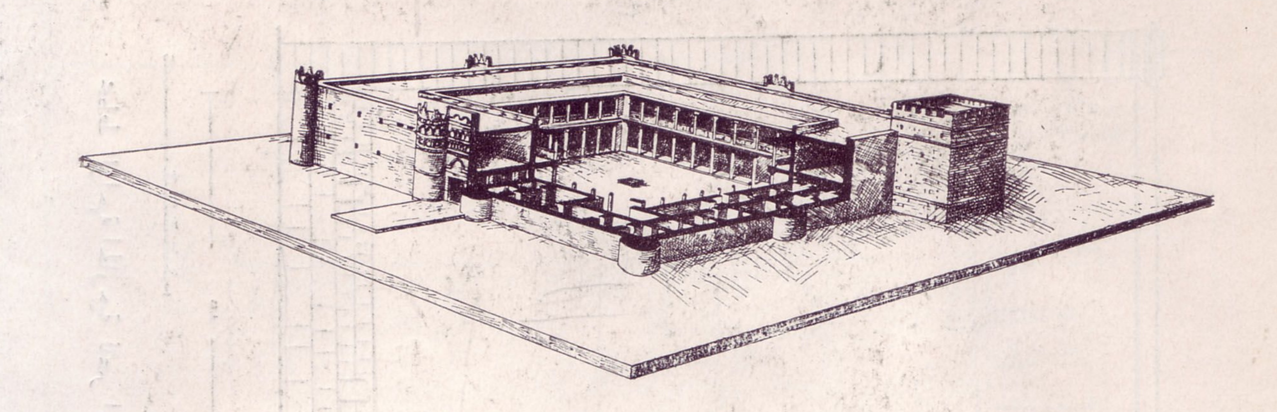
اللوح - ٢ -



مخطط قصر الحير الغربي .



مخطط الواجهة الخارجية لقصر الحير الغربي



١ — مخطط قصر الحير الغربي ، وبعض مقاطعه الداخلية .

٢ — شكل مجسم لقصر الحير الغربي كما كان قديماً . وهذا الشكل معروض حالياً في داخل الجناح المعاد في متحف دمشق .

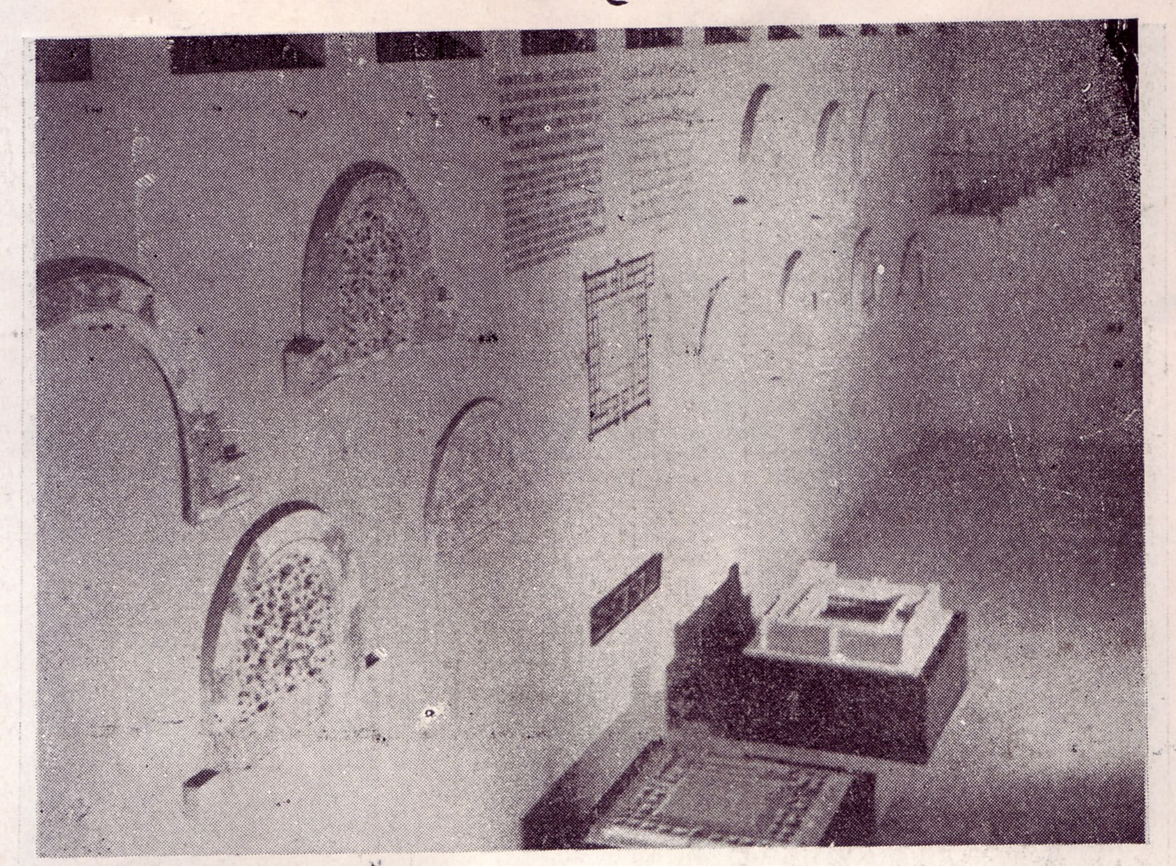


١ — مدخل قصر الحير الغربي ، بعد إعادة تشييده في متحف دمشق .

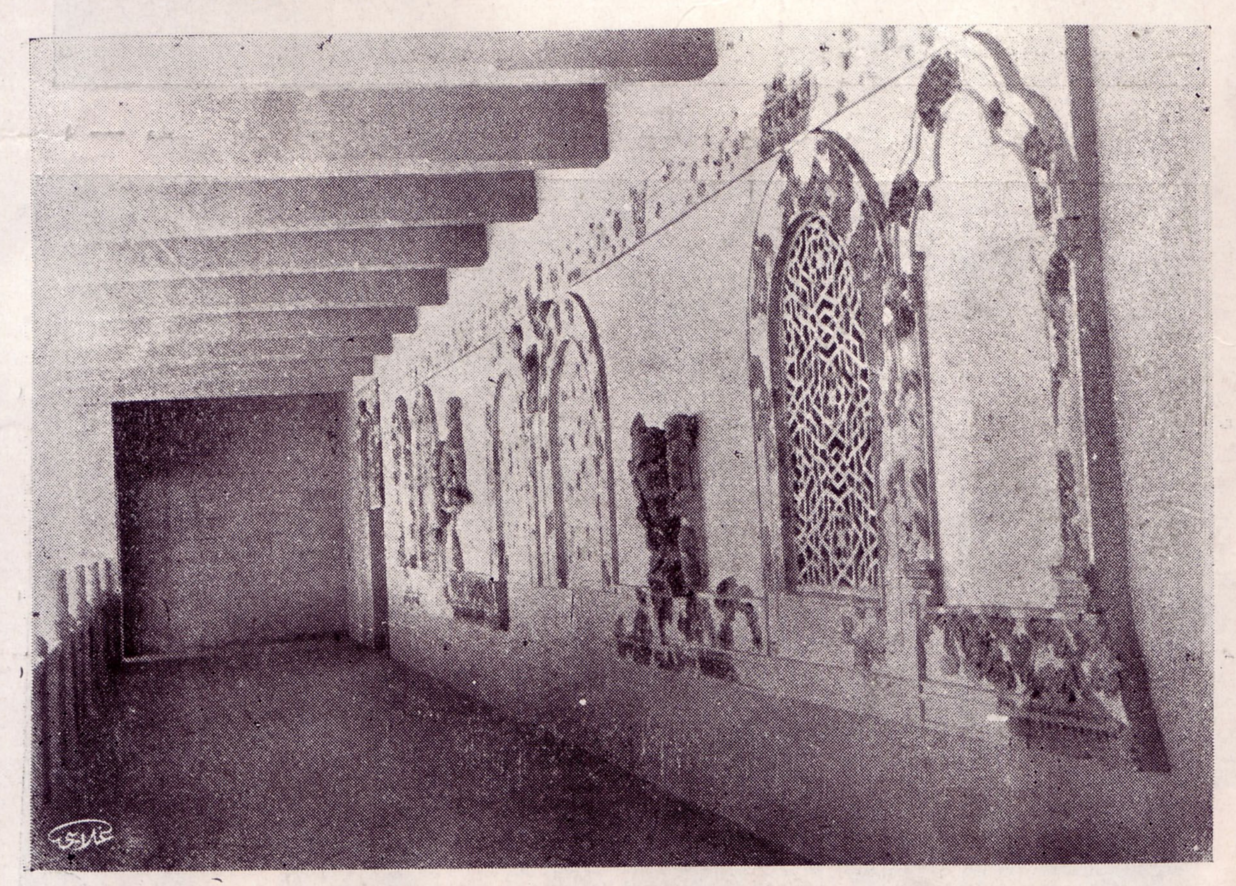


٢ — رواق قصر الحير الغربي ، بعد إعادة تشييده .

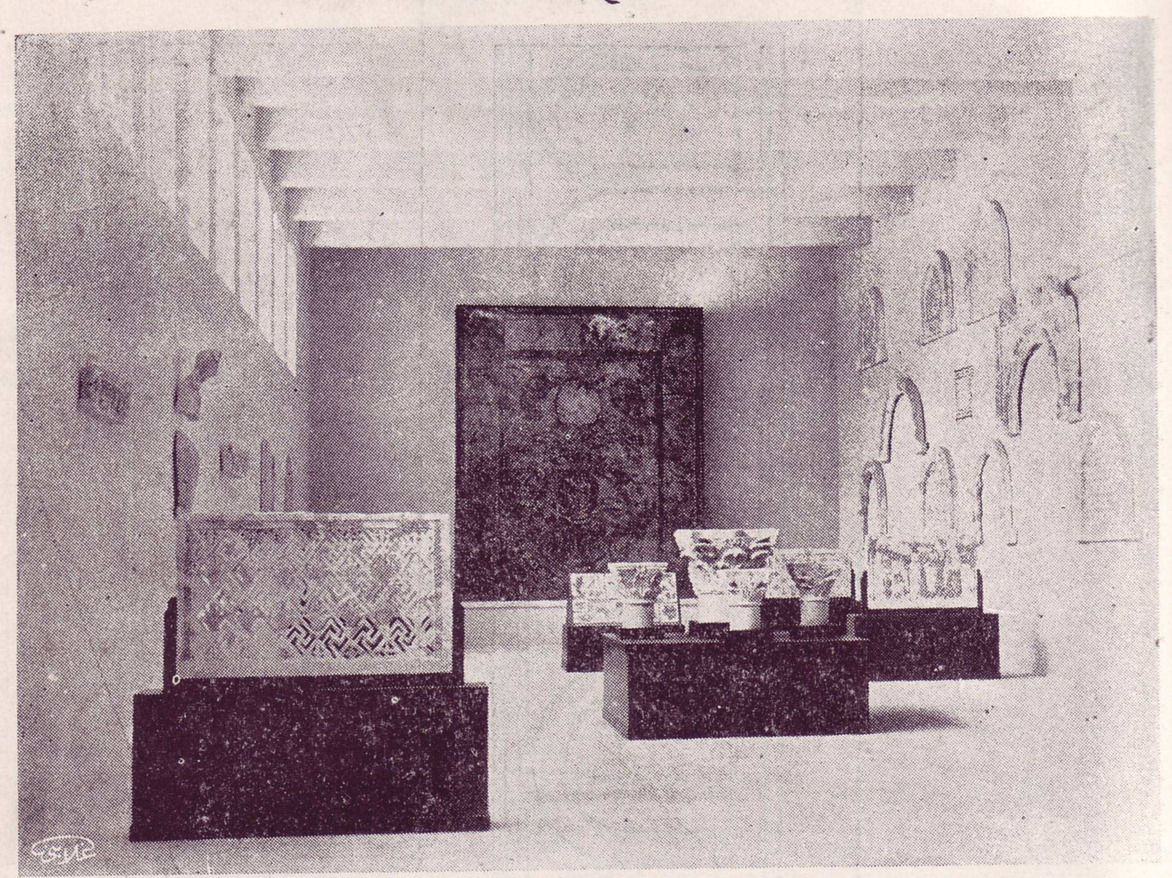
اللوح - ٦ -



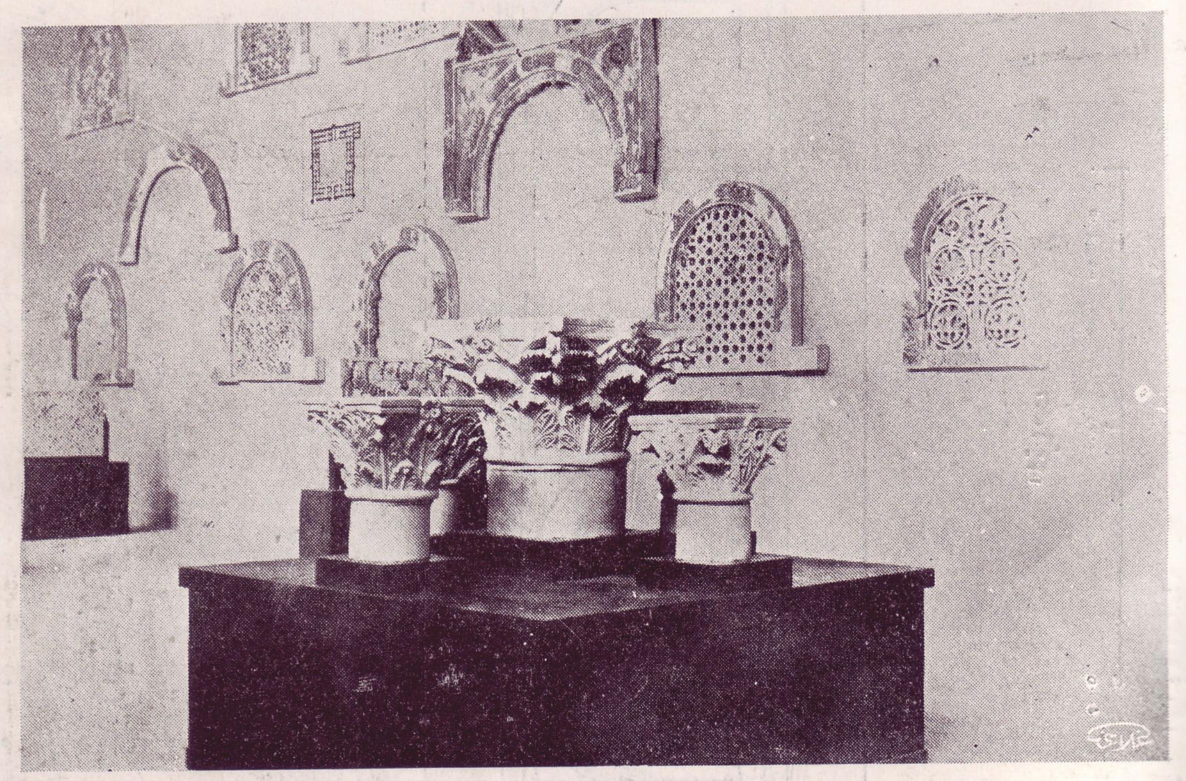
١ — الجدار الجنوبي للباحة في قصر المعاد ، وترى عليه بعض النوافذ الجصية معلقة .



٢ — منظر عام للواجهة الداخلية ، وقد اعيد إنشاؤها في الطابق العلوي .



١ — منظر عام للبهو العلوي الـكبير .



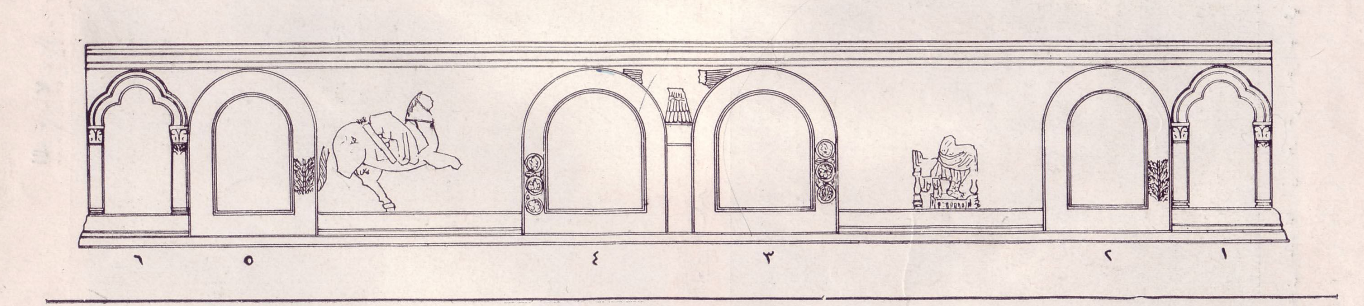
٢ — منظر حاملة التيجان المتنوعة التي عثر على أجزائها في حفريات القصر .

اللوح -٨-

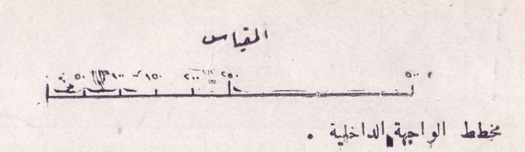
مديرية الآثار العامة

قصر الحير الغربي

الجهة الداخلية



المقياس



مخطط الواجهة الداخلية .

ثلاثة عشر منفذاً . ثم سدت عشرة منافذ منها . ولم يبق منها إلا ثلاثة ، وقد اختفت الآن صفحة الماء التي كانت تتجمع وراءه ، وحلت محلها طبقة من الرسوبات شبيهة بطبقة الركام التي تشكلت وراء سد حربقة .

١٠ — الخان

ويقع الخان [١] بالقرب من البركة على الشاطيء المقابل للوادي . وهو بناء له باحة متوسطة مربعة تقريباً . وجدرانه من الطوب ، وقواعدها من الأحجار المنحوتة بانتظام على شاكلة جدران البستان ، وقد تهدمت الجدران ولم يبق منها إلا أقسامها الحجرية .

ويتألف كل جناح من أجنحة الخان الشمالي والغربي والجنوبي ، من قاعة واحدة طويلة جداً ، وينفذ المرء اليها من بابين . أما الجناح الشرقي ، ففيه ست حجرات صغيرة ، تقع كل ثلاث منها في جهة . وكانت الأجنحة الأربعة تتصل بالباحة بواسطة أروقة مرفوعة على دعائم خشبية ذات قواعد حجرية ما زالت في أمكنتها . ثم أنه يتقدم على بناء الخان فسحة في شمالها رواق على عمد مع حوض للماء ، وفي جنوبها مسجد له محراب ، وفي شرقها حوض آخر يأتيه الماء من قناة تعبر الوادي على قناطر .

١١ — الحمام

ويقع الحمام في شمالي القصر . وشكله غير منتظم ، وقريب من شكل مستطيل طرفاه الكبيران يتجهان الى الشمال والجنوب ، وجدرانه مبنية من الأحجار الجصية الصلبة ، وبعض أحجار الأبنية البيزنطية والرومانية القديمة . وهو ينقسم إلى قسمين أساسيين وهما :

القسم غير المدفأ وفيه أربع حجرات ، والقسم المدفأ وفيه ثلاث حجرات . والى جانب هذين القسمين توجد حجرتان فيهما أجهزة التسخين والماء ، وحجرة عاشرة لتنظيف مكان الوقود . وتختص الحجرات غير المدفأة أن الأولى منها وهي المدخل مكشوفة ومبلطة ببلاطات حجرية كبلاطات باحة القصر ، وان الثانية مستطيلة وفي زاويتها الجنوبية الغربيـة بركة ، وحولها مصاطب فيها محاريب صغيرة ، وأن الثالثة مربعة وفي جدارها الجنوبي محراب في أرضه فوهة لتصريف الماء المستعمل ، وأن الحجرة الرابعة مربعة أيضاً وفي منتصف جدارها الجنوبي محراب نصف مستدير . أما الغرف المدفأة فالخامسة مربعة وفي قسمها الغربي مصطبة عريضة ،

(١) وهو البناء الذي ذكرنا أنه نقش على عتبته أن بناءه كان بأمر هشام بن عبد الملك على يد ثابت بن أبي ثابت (انظر هامش الصحيفة ٩)

والسادسة مثلها وفيها بركتان على شكل نعل الفرس ، وكذلك السابعة وفيها بركة مربعة تبرز قليلا إلى الخارج من طرفها الغربي ، ومصطبة عالية في طرفيها محرابان وبينهما بركة . وكانت هذه الغرف مغطاة بسقوف على شكل المهد ، وأرضها محمولة على صفوف متفرقة من الآجر تطوف بأرجائها ، وتتألف منها دعامات في كل منها ثمانية أو عشرة أقراص آجرية ، ويمر بينهما الهواء الساخن . ثم انها كانت مدفأة تماماً . اذ أنه كان يتقدم على جدرانها حواجز يمر بينها وبين الجدران أيضاً الهواء الساخن فيؤلف فراشاً ساخناً . وأخيراً فان الغرفة الثامنة هي درج ذو انحدار بسيط وتستخدم لتسخين الماء الذي يجتمع في خزان ، فيسخن ويتحول الى بخار لدى مروره على الأرض الساخنة فوق الموقدة . ثم يمر البخار الى الغرفة السابعة وما بعدها ، ويلاحظ أن جدران حجرات الحمام مغشاة بطلاء ذي لون واحد ، أو أنها مزينة بمواضيع مصورة تحاكي المرمر .

وخلاصة القول ان هذا الحمام شبيه بحمام قصير عمرة ، ويعطينا فكرة عن الحمام الأموي الذي ابتعد عن الحمام الروماني لعدم احتوائه على غرفة باردة شأن كل الحمامات القديمة .

١٢ – القصر :

يختص قصر الحير الغربي أن شكله مربع تقريباً ، وأن أقسامه مرتكزة على سوره الخارجي ومتوزعة حول باحة داخلية ، وأن بناءه من الحجر الى ارتفاع مترين عن سطح الأرض ، ثم بعد ذلك من الطوب الذي تتخلله صفوف من الآجر أو عوارض خشبية . أما سوره الخارجي فهو أكثر سمكاً من جدرانه الداخلية ، وله زوايا ، (ما عدا الزاوية الشمالية الغربية) ، مزينة بأبراج مستديرة ، وأضلاع مزينة في أواسطها بأنصاف أبراج اسطوانية ما عدا واجهته الشرقية حيث يحيط بالمدخل الأساسي الوحيد نصفا برجين اسطوانيين . وكل هذه الأبراج وأنصاف الأبراج غير مفرغة كالأبراج الرومانية والبيزنطية بل مملوءة ، ولا تلعب أي دور عسكري ، والغاية منها دعم السور وتزيينه لا تحصينه أو الدفاع عنه . وتسبق مدخل القصر الواقع في منتصف الجهة الشرقية ، فسحة مبلطة ببلاطات حجرية ، ويظن أن هذه الفسحة أضيفت بعد بناء القصر لأن سويتها مرتفعة ، وتحجب قسماً من قاعدتي البرجين المنحوتين . وذلك لكي تمنع مياه الوادي من النفوذ الى الداخل في أزمنة ارتفاع الفيضانات . ومن المحتمل أن يكون بناء المدخل أكثر ارتفاعاً من بقية جهات سور القصر وأبراجه . ويلاحظ أن طرفي الباب وعتبته العلوية من الحجر الجصي الصلب ، وأنها مزينة بصف من الزخارف المخرمة التي تمثل أوراق الكرم والعناقيد المتشابكة . وهي قديمة ، وأكبر الظن أنها منتزعة من أحد الأبنية السورية التي

شيدت في العهد الروماني . ولا يستبعد أن يكون البناؤون الأمويون قد نقلوها من تدمر ، وأنهم قصروا الطرفين ، لأن الأبنية الرومانية لها مداخل اعلى من هذا المدخل . ويؤيد ذلك أن زخارف الطرفين السفلية قد تأكلت قبل أن يرفع هذان الطرفان على باب قصر الحير ، فأعاد العمال الأمويون زخارفها وجعلوها من الجص ، وما زالت ترى على هذا الشكل . ثم أنه يوجد على ظهر عتبة الباب السفلية ، كتابة اغريقية مرسومة بخط أحمر . وهي تدل على أن هذه العتبة كانت لدير نصراني يعود عهده الى القرن السادس الميلادي . ولا يستغرب أن كان هذا الدير في موقع قصر الحير ، وأن البرج البيزنطي كان جزءاً منه . ويقول السيد دانيل شلومبرجة إن الحارث بن جبلة الغساني هو الذي شيد هذا الدير ليكون محطة على طريق تدمر ، وأقام فيه حامية من جنوده الغسانيين ، وأنه يستمد الماء من الآبار والأحواض ، لأن قناة حربقة كانت قد تخربت ولم تصلح إلا في زمن الأمويين (١) .

وينفذ المرء من الباب الى دهليز واسع محمول على قنطرتين مستندتين من كل جهة على دعامتين . وما بين القنطرتين على طول جداري الدهليز ، مصاطب كانت مخصصه لجلوس خدم القصر . وتشاهد حول الباحة أروقة كانت محمولة على عمد ، لم يبق منها إلا قواعدها ، وعلى دعائم في زوايا الباحة الأربع ، وقد ظلت أقسامها السفلية منتصبة . ويظهر أن قواعد الأعمدة قديمة ، وأن عهدها من القرنين الثاني أو الثالث الميلاديين ، وأن ما يوجد في الرواق الشرقي منها هي تيجان أعمدة من الطراز الدوري مقلوبة الى الأسفل ، ومجعولة كأنها حوامل للعمدان . وتختص كل هذه القواعد أنها كانت غائرة في أرض القصر بين بلاطات الأروقة التي تخفي زخارفها المنحوتة . وتفصل الأروقة عن الباحة بدرجة غير مرتفعة ، ويطوف بأطراف الباحة أمام هذه الدرجة أخدود صغير وغير عميق يجمع مياه الأمطار ، ويوجد في وسط الباحة حوض صغير .

وأما تخطيط القصر فبسيط . اذ أن قاعاته وحجراته منظمة في ستة بيوت مستقلة عن بعضها ، ويوجد منها اثنان في الجهة الشرقية ، واثنان مقابلها في الجهة الغربية ، وواحد في الجنوب وواحد مقابله في الشمال . ويحوي كل بيت من (٨) الى (١٣) قاعة وحجرة . وقوامه قاعة كبرى هي واحده متشابهة في كل البيوت وتمتد بين رواق الباحة وسور القصر الخارجي ولها سقف محمول على قنطرة مدورة تقسم سطحها الى قسمين ، وتستند على دعامتين . ويتصل بكل قاعة من هذه القاعات أربع حجرات صغيرة متقابلة ، اثنتان من كل طرف ، بحيث أن بعضها يستند على سوار القصر الخارجي ، وبعضها على جدران الباحة الداخلية . وتقع المراحيض

(١) شلومبرجه ، المصدر المتقدم ص : ٣٦٣

في احدى حجرات البيوت الأخيرة ، مما يجعل كلاً من هذه البيوت الستة وحدة قائمة بذاتها .

وأثبتت الاكتشافات على أنه كان لقصر الحير الغربي طابق ثانٍ ، اذ أنه وجدت معالم لدرجين خشبيين كان يرقى عليهما أهل القصر اليه . كما أنه وجدت في المراحيض دعامات مركزية فيها أنابيب لتفريغ مياه المراحيض العلوية ، وكذلك فقد التقطت قطع جصية منحوتة بمشاهد مختلفة كانت كدرابزون بين أعمدة رواق الطابق الثاني ، وسيأتي الكلام عنها . وأكبر الظن أن تخطيط هذا الطابق كتخطيط الطابق الأول أو يختلف عنه شيئاً يسيراً وببعض التفاصيل . ويدل على ذلك أن القاعات الكبرى كانت تعلوها قاعات كبرى أخرى لأنه جمع من أرضها قطع جصية منحوتة هي أجزاء من نوافذ يعادل عددها ضعف النوافذ التي فيها . وعلى هذا فإنه كان يوجد في قصر الحير اثنا عشر بيتاً ، ستة منها في الطابق الأول وستة في الطابق الثاني . وكل منها وحدة مستقلة ، ولا تختلف عن بعضها بتنظيمها الا ببعض التفاصيل .

ويظهر أن حجرات هذه البيوت الصغيرة المستندة على السور الخارجي كانت تضاء بكوات صغيرة ومستطيلة وعالية مثقوبة في هذا السور . وشأنها في ذلك شأن سور قصر خرانة ، وسور قصر الحير الشرقي ، حيث ما تزال هذه النوافذ الصغيرة ماثلة . وكذلك فإن الحجرات الصغيرة المطلة على أروقة الباحة كانت تضاء عن طريق كوات ينفذ منها النور . أما القاعات الوسطى فيظن أنها لم تكن تضاء الا من الرواق بواسطة النافذة المخرمة التي سيأتي الكلام عنها . وأخيراً فإنه كانت توجد بين كل حجرتين صغيرتين متجاورتين نافذة عالية الغاية منها إشعاع النور الذي يأتي من كوة الباحة أو كوة السور الخارجي في كلتي الغرفتين على السواء .

وكان قصر الحير الغربي يستمد الماء بواسطة أنبوب فخاري ، يتفرع من قناة حربقة ، وينفذ الى القصر عن طريق ثلمة في أسفل جدار القصر لدي دخوله الى الحجرة (٢٣) . وهذه الثلمة مسدودة بشباك حديدي . ثم يجتاز الأنبوب الباحة بميل ظاهر ، وينقسم الى فرعين يغذي الأول حوض الباحة ، والثاني حوضاً آخر في الحجرة (٥٤) . ويوجد حوض ثالث في داخل البرج البيزنطي ، يستمد ماءه بواسطة أنبوب يمر من الرواق الشمالي ثم من القاعة (٤٠) ، بعد أن يمر في خزان غربي البرج .

وأخيراً فإنه يلاحظ أن البنائين الأمويين أدخلوا بعد انتهاء البناء على القصر شيئاً من التعديلات ، منها بناء الزاوية الشمالية الشرقية ، وأبدلوا مرحاض القاعة (٤٣) ، وسدوا بعض الأبواب الزائدة التي استخدموها لتسهيل انتقالهم خلال فترة الأعمال . وقد شغل القصر بعد انتهاء تشييده ، دون أن تطرأ عليه تبديلات أخرى . والأغلب أنه لم يستعمل مدة من الزمن تزيد

على عشرة أو عشرات معدودة من السنين . وقد عقبت هذه المدة القصيرة ، مدة أخرى استولى الفلاحون فيها عليه بعد أن هجره أصحابه . ويدل على ذلك ما اكتشف من آثار لمعالف الحيوانات المصنوعة من الطوب في بعض الغرف ، وفرن ريفي ، وطاحونة صغيرة في جزء من أجزاء الباحة . وأخيراً لم يطل أمد هذه المدة الثانية . وأكبر الظن أن بنيانه قد انهار . ولولا ذلك لما أظهرت الحفريات بعض أقسامه بحالة جيدة ، وبعض الألواح المصورة التي كانت في أرض بعض حجراته .

١٣ – لمحة عن فن قصر الحير ، ومكانته في تاريخ عمارة بلاد الشام :

وننتقل بعد هذا الوصف الموجز لقصر الحير الغربي ، إلى ذكر لمحة عن طراز عمارته وعن الخصائص التي تميزت بها العمارة المدنية الأموية بصورة عامة ، من حيث اقتباسها لبعض عناصر الفنون التي سبقتها ، وعن مدى الابتكار الذي تجلى ، في منشآتها ، ومما لا ريب فيه أن هذا القصر هو مرحلة حاسمة في تاريخ العمارة المدنية المزيج الذي يعتمد على طريقتي البناء بالحجر والآجر ، ويمر بنقطة الأوج الذي يرسمه منحني تطور الفن الكلاسيكي الأموي ، بين كل القصور التي وجدت في بادية الشام . فهو أجمل كل المنشآت التي بنيت على شكل مربع أو قريب من المربع ، وجعلت لها باحة مركزية ، ومدخل واحد ، وأحيطت بأسوار ، ونظمت أبراجها النصف الاسطوانية في أواسط أسوارها ، وأبراجها الشبه المستديرة في زواياها . وما تخطيطه الذي تقدم وصفه الا انطباق مخطط نموذجي شائع في آخر القرن السابع وأول القرن الثامن الهجريين ، على ضرورات محلية . ويتمثل فيه خاصة حب التأليف المتناظر . ففي طابقه السفلي ستة بيوت ، اثنان في الجهة الغربية ، ويقابلان تماماً البيتين الشرقيين . كما أن البيت الواقع في الشمال يقابل ويناظر البيت الجنوبي . ويتجلى هذا التناظر أيضاً في تفاصيل متعددة ، مثل تنظيم أعمدة الأروقة ، وجعل محاور داخل البيوت في منتصف المسافات بين هذه الأعمدة ، بيد أنه لا يجب أن يغيب عن الأذهان ، أن هذا التناظر ليس مطلقاً تماماً . لأن البنائين الأمويين اضطروا للتوفيق بين بناء القصر وبين ما كان يوجد قبله من منشآت بيزنطية ، كالبرج الشمالي الغربي .

ثم إن الفكرة التي أوحت بمخطط قصر الحير الغربي ، وفي غيره من قصور الأمويين ، تشبه الأفكار التي بنيت عليها المدينة الأموية ، في اذابة ثقافات العالم القديم في بوتقتها ، وإنشاء حضارة جديدة . غير أنه يجدر أن يلاحظ أن آثار التراث العربي الأصيل غير غائبة

عن هذا المخطط ، وأن عناصره لم تؤخذ فحسب من الفن السوري القديم وما يعتمد عليه من تقاليد اغريقية ورومانية وتدمرية وبيزنطية ، ومن فن الساسانيين . اذ لا بد أن يكون الأمويون قد استمدوا عناصره الأساسية من الأبنية التي رفعها من سبقهم من العرب قبل الاسلام . ويحدثنا المسعودي أن المتوكل سمع من بعض سماره في بعض الليالي أن أحد ملوك الحيرة من النعمانية أحدث بنياناً في دار قراره وهي الحيرة على صورة الحرب وهيئته للهجته بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله ، فكان الرواق مجلس الملك ، وهو الصدر ، والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين الذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه ، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب ، والرواق . وقد عم فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق ، فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكمين إضافة إلى الحيرة [1] ، وهنا يحق لنا أن نتساءل فيما إذا كان الأمويون الذين هم أقرب الى ملوك النعمانية من العباسيين استوحوا في انشاء أبنيتهم في بادية الشام من قصر الحيرة ، وحولوا في عناصره وجعلوها متفقة مع عناصر الحياة فيها . غير أن هذه الفرضية لم تؤيد بأدلة محسوسة ، لأن الحفريات التي قامت بها بعثة (أكسفورد) في موقع الحيرة لم تعط أية نتيجة تذكر ، ولم تكشف الستار عن الأبنية اللخمية ، ولم يظهر خلالها ولا بناء يرقى عهده إلى عصر أقدم من عصر الحير الغربي [2] . بيد أنه لو أمعنا النظر في الخبر المتقدم ، لأمكننا أن نتصور أن قصر الحيرة الذي أنشيء في القرن الخامس على صورة الحرب ، كان على شكل معسكر ، أو حصن محاط بالأسوار والأبراج . كذلك يرى أنه كان له رواق ولعل هذا الرواق كان حول باحة متوسطة . ولا نستطيع الإمعان في سرد هذه المشابهات اعتماداً على هذا النص فقط ، لأن بقية أوصاف الغرف لا تساعدنا على تحقيق مبتغانا . ومهما يكن فيحق لنا أن نتردد في الاعتقاد أن نموذج قصور الأمويين كان شائعاً في فنون الشرق الأدنى منذ القرن الخامس الميلادي ، وأنه تحقق في الحيرة لأول مرة في تاريخ البناء .

أما أخبار التاريخ العربي التي تلمح إلى وجود قصور حصينة حول مكة والمدينة ، كانت تسكنها القبائل العربية في الجاهلية وفي زمن محمد ﷺ ، ويقول فيها هنري ستيرن إنها متأثرة من فن قصر الحيرة ، وأن الأمويين ربما استوحوا منها في تشييد نماذج قصورهم في بادية

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، الجزء (٢) ، ص : ٣٦٩ ، طبع مصر ١٣٤٦ هـ .

(٢) D. Talbot Rice : The Oxford Excavations at Hira. Ars Islamica I (1934), 51—57.
» » » : Journ. Royal Central Asian. Soc. XIX (1932), 254.
» » » : Antiquity, VI (1932), 276.

الشام (٢) ، فلا يمكن أن تفيدنا فائدة تذكر ، في حالتنا العلمية الحاضرة . إلا أن الاتجاه المعاصر في الاستنتاج أن هذه القصور تستخدم الأشكال استخداماً خاصاً ينص على حبس فراغ مفتوح ضمن فراغ مغلق (٣) ، وأن هذه الأشكال يمكن البحث عنها لدى أعراب شبه الجزيرة العربية في الجاهلية . إذ أنهم كانوا منذ أبعد الأزمنة يجعلون خيامهم حول فسحة مركزية يجمعون فيها أنعامهم . وقد نشأت على ذلك دورهم . وكانت لدار النبي ﷺ في المدينة باحة مماثلة اعتاد المؤمنون ان يقيموا فيها صلواتهم (٤) .

ونشأت فيما بعد على هذا الشكل ، دار الندوة في مكة ، ودور الأمارة التي بناها القواد المسلمون الفاتحون في البلاد المفتوحة ، كما بنيت على نماذجها المساجد والجوامع والمدارس والخانات (٥) . ومن الطبيعي أن تكون قصور الأمويين في بادية الشام من أولى المنشآت التي اعتمدت على صفة من صفات الحياة العربية الأولى ، وعبرت عنها في شكل معماري جديد . وفي الحقيقة إذا تأيد هذا الرأي في نشوء نموذج المسجد الأموي ، فبالأحرى أن يكون صحيحاً أيضاً في نشوء القصر الأموي . وما الفرق بين البنائين ؟ فكلاهما مربع أو مستطيل ، ويحوي صحناً أو باحة ، وتحيط به أروقة من الداخل ، ويحيط به من الخارج جدران صماء . وصفوة القول إن نموذج قصر الحير الغربي شأن نماذج كل قصور الأمويين في بلاد الشام مستوحى من شكل البيت العربي في الجاهلية .

١٤ — اعادة تشييد جزء من قصر الحير الغربي في متحف دمشق :

ولا يعادل غنى المكتشفات الأثرية التي ظهرت خلال حفريات قصر الحير غنى أية مكتشفات أخرى . إذ أنه التقط خلال هذه الحفريات ما يزيد على خمسين ألف قطعة من الجص المحفور ، فيها عدد كبير من المجموعات الثمينة التي تؤلف ثروة أثرية عظيمة دالة كل الدلالة على مواضيع فن النحت وصفاته في زمن الأمويين . وكذلك التقطت أجزاء عديدة من صور جدرانية تامة أو ناقصة . وهي تمثل مواضيع هندسية أو نباتية ، أو مشاهد حية تعد من أهم ما اكتشف

(٢) انظر مقال هنري ستيرن المذكور ، أرس اسلاميكا ، العدد ص : ٨٣ و ٨٤ .
(٣) راجع مقالنا : نظرات في الفن الاسلامي ، المنشور في العدد ٦ من مجلة المعلم العربي ، لسنة ١٩٥١
(٤) انظر في كتاب جورج مارسه فن الاسلام طبع هاشيت ص : ٩ وما بعدها .
(٥) يعود الفضل في تأييد هذا الرأي الى جورج مارسه في بحثه الطريف Art musulman, art arabe : في كتاب :
Actes du XXIe Congrès international des Orientalistes. Paris 1949. p. 331 — 5.

من وثائق للتعريف بفن التصوير في أول القرن الثامن الميلادي . ويضاف إلى ذلك عدد من الكتابات الكوفية المنقوشة أو المخطوطة على ألواح حجرية هي أقدم أمثلة على الخط العربي ، مما جعل مديرية الآثار العامة تفكر خلال سنة (١٩٣٨) بإنشاء جناح خاص في متحف دمشق لعرض كل هذه المكتشفات . ثم وجدت أن أحسن وسيلة لتحقيق هذه الفكرة أن تعيد تشييد جزء من قصر الحير الغربي نفسه ، ليكون المكان المختار لعرض الآثار في مواضعها الأصلية . ولا ريب أن القسم الأوسط الشرقي من القصر الذي يضم المدخل والباب والبرجين الخارجيين وبعض أجزاء البيتين الشرقيين كان أجمل الأقسام من حيث العمارة والزخارف . ولا يستبعد أن يكون الجناح الذي كان يشغله الخليفة هشام لدى حلوله في القصر . فهو يصلح إذن ، لأن يكون نموذجاً ممثلاً للمبادىء التي شيدت عليها قصور الأمويين في البادية ، ومتحفاً لمخلفات قصر الحير ، وفاتحة مباركة للجناح الإسلامي الجديد المزمع إنشاؤه في متحف دمشق قريباً .

ثم وجد أن القسم المعاد تشييده يجب أن يحوي قاعتي البيتين الشرقيين (٦) و (٧) والحجرتين الصغيرتين الواقعتين في يسار الأولى ، (٤) و (٢) والحجرتين الصغيرتين في يمين الثانية ، وهما (٥) و (٣) . وروئي الاكتفاء فقط بإنشاء الجدارين اللذين يفصلان القاعتين الكبيرتين (٦) و (٧) عن الحجرات الصغيرة الأخرى التي تأتي بأطرافها حاملة الأرقام (١٤) و (٨) و(٩) و (١١) كما هو موضح في مخطط اللوح (٢) المرفق . وقد بلغ طول هذا القسم (٣٢،١٦ م) وجعل في الاتجاه الشرقي ـ الغربي نسبة إلى بناء الجناح الروماني الاغريقي في المتحف .

أما عرضه فقد بلغ (٢٣،٠٥) م في الاتجاه الشمالي — الجنوبي . وقد حوى إلى قاعتي وحجرات البيتين المتقدمة جزءاً من الرواق الشرقي ، وجزءاً من الباحة التي تقابله ، وذلك لكي يتمكن الزائرون من الدوران حول أعمدة الرواق في الطابق السفلي ، وتأمل ألواح شرفات الطابق العلوي .

* * *

وبدأت أعمال البناء ، وتتابعت أعمال جمع الزخارف وإنشاء وحدات ومجموعات منها ، خلال السنة (١٩٣٩) ، وسارت ببطء خلال عدة سنوات لقلة الاعتمادات المخصصة لها ، ولانصراف الأفكار أثناء الحرب العالمية الثانية عن الالتفات إلى تحقيق مثل هذا المشروع من جهة . ولصعوبة الأعمال التي يقتضيها ودقتها من جهة ثانية ، بحيث أن العام (١٩٤٤)

حان ولم ينته من البناء إلا البرجان الخارجيان اللذان زينا بقطع الجص المحفور الملتقطة أمام مدخل قصر الحير الغربي الأصلي ، بعد أن أعيدت الى أوضاعها القديمة بصورة تقريبية جداً ووصلت ببعضها . وبلغ ارتفاعهما نحو (١٤،٤٥ متراً) ، كما بلغ ارتفاع القسم المتوسط الذي اجمعت عدة دلائل على أنه أعلى من بقية أقسام القصر ، نحو (١٤،٧٥ متراً) . ثم جعل فوق هذين البرجين سقف واقٍ (لم يكن طبعاً في البناء الأصلي) من الاسمنت المسلح على طول جبهة كل القسم الذي أعيد إنشاؤه . ويبلغ ارتفاعه (١٨ متراً) وعرضه (٦،٧٥ أمتار) . وقد أتى بناء هذا السقف جريئاً جداً ، لأنه يرتفع بكتلته إلى هذا العلو الشاهق في طرفي الجناح الاغريقي — الروماني ، والجناح الغربي الاسلامي [1] ، دون أن يرتكز على أي حجم يكافىء حجمه أو يوازنه . وكان القصد منه حماية زخارف البرجين من تأثيرات الحرارة والضياء والرياح والأمطار . إذ أن واجهة قصر الحير المشيدة تشرف مباشرة على حديقة المتحف (انظر اللوح ١) . وأريد أن تنظم امامها الفسحة التي كانت أمام قصر الحير الغربي لمنع دخول السيل إلى القصر ، وذلك أقرب إلى الغاية التي أعيد تشييد هذا الجزء من أجلها ، وأدعى إلى الصدق ، على عكس ما أجري في متحف برلين لما نقلت إليه جبهة قصر المشتى الخارجية ، وأعيد إنشاؤها في جناح محصور [2] . ولم يقصد من هذا العمل إلا إظهار شكل زخارف الجبهة وأوضاعها القديمة . وأخيراً فقد طلي القسم العلوي من هيكل السقف الواقي (الذي لا يمت إلى قصر الحير الغربي بصلة) ، بلون أصفر يختلف عن لون الجدار الجصي الأصلي ، وذلك لكي لا يخدع به الزائر غير العارف .

وفي السنة (١٩٤٧) نشطت أعمال البناء داخل هذا الجناح ، فشيدت أقسام البيتين التي تقدم ذكرها ، ورفع الرواق (انظر اللوح ٥ ، الصورة ٢) الذي يقابلها على ستة أعمدة ، قواعدها أصلية نقلت من قصر الحير ، وقطر كل نحو (٠،٥٥ م) ، وارتفاعه (٥،٦٥ م) . وجعل في كل طرف من طرفي هذا الرواق درج يؤدي إلى الطابق العلوي . ولم يكن هذان الدرجان في البناء الأصلي ، لأن الدرجين الأصليين اللذين كان يصعد عليهما إلى الطابق العلوي من بناء قصر الحير الغربي ، وجدا في الحجرتين (١٤) و (١٩) اللتين لم يعاد بناؤهما . ولم نجد فائدة لأن نعيد في الطابق العلوي تقسيماته الأصلية ، لأننا وجدنا أنفسنا أمام

---

(١) الذي ما زال بناؤه في مرحلة التشييد الأولى .

(٢) قدمت هذه الجبهة هدية من السلطان عبد الحميد إلى القيصر غليوم الثاني . وترى عنها صورة جميلة وهي في متحف برلين ، في كتاب فنون الاسلام للدكتور زكي محمد حسن ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص : ٤٩

حان ولم ينته من البناء إلا البرجان الخارجيان اللذان زينا بقطع الجص المحفور الملتقطة أمام مدخل قصر الحير الغربي الأصلي ، بعد أن أعيدت الى أوضاعها القديمة بصورة تقريبية جداً ووصلت ببعضها . ويبلغ ارتفاعهما نحو (١٤٫٤٥ متراً) ، كما بلغ ارتفاع القسم المتوسط الذي اجمعت عدة دلائل على أنه أعلى من بقية أقسام القصر ، نحو (١٤٫٧٥ متراً) . ثم جعل فوق هذين البرجين سقف واق (لم يكن طبعاً في البناء الأصلي) من الاسمنت المسلح على طول جبهة كل القسم الذي أعيد إنشاؤه . ويبلغ ارتفاعه (١٨ متراً) وعرضه (٦٫٧٥ أمتار) . وقد أتى بناء هذا السقف جريئاً جداً ، لأنه يرتفع بكتلته إلى هذا العلو الشاهق في طرفي الجناح الاغريقي — الروماني ، والجناح الغربي الاسلامي [١] ، دون أن يرتكز على أي حجم يكافىء حجمه أو يوازنه . وكان القصد منه حماية زخارف البرجين من تأثيرات الحرارة والضياء والرياح والأمطار . إذ أن واجهة قصر الحير المشيدة تشرف مباشرة على حديقة المتحف (انظر اللوح ١) . وأريد أن تنظم امامها الفسحة التي كانت أمام قصر الحير الغربي لمنع دخول السيل إلى القصر ، وذلك أقرب إلى الغاية التي أعيد تشييد هذا الجزء من أجلها ، وأدعى إلى الصدق ، على عكس ما أجري في متحف برلين لما نقلت إليه جبهة قصر المشتى الخارجية ، وأعيد إنشاؤها في جناح محصور [٢] . ولم يقصد من هذا العمل إلا إظهار شكل زخارف الجبهة وأوضاعها القديمة . وأخيراً فقد طلي القسم العلوي من هيكل السقف الواقي (الذي لا يمت إلى قصر الحير الغربي بصلة) ، بلون أصفر يختلف عن لون الجدار الجصي الأصلي ، وذلك لكي لا يخدع به الزائر غير العارف .

وفي السنة (١٩٤٧) نشطت أعمال البناء داخل هذا الجناح ، فشيدت أقسام البيتين التي تقدم ذكرها ، ورفع الرواق (انظر اللوح ٥ ، الصورة ٢) الذي يقابلها على ستة أعمدة ، قواعدها أصلية نقلت من قصر الحير ، وقطر كل نحو (٠٫٥٥ م) ، وارتفاعه (٥٫٦٥ م) . وجعل في كل طرف من طرفي هذا الرواق درج يؤدي إلى الطابق العلوي . ولم يكن هذان الدرجان في البناء الأصلي ، لأن الدرجين الأصليين اللذين كان يصعد عليهما إلى الطابق العلوي من بناء قصر الحير الغربي ، وجدا في الحجرتين (١٤) و (١٩) اللتين لم يعاد بناؤهما .

ولم نجد فائدة لأن نعيد في الطابق العلوي تقسيماته الأصلية ، لأننا وجدنا أنفسنا أمام

---

(١) الذي ما زال بناؤه في مرحلة التشييد الأولى .

(٢) قدمت هذه الجبهة هدية من السلطان عبد الحميد إلى القيصر غليوم الثاني . وترى عنها صورة جميلة وهي في متحف برلين ، في كتاب فنون الاسلام للدكتور زكي محمد حسن ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص : ٤٩

فرضيتين . فإما أن تكون هذه التقسيمات تشبه ما رأينا في الطابق الأرضي تماماً شأن طابقي قصر خرانة [١] . فلا يستفاد شيء من تكرار الأوضاع التي يبدو لنا منها نموذجان كاملان في الطابق الأسفل ، وإما أنها لا تشبهها [٢] ، وليس لدينا كما هو معلوم أية فكرة على ما كانت عليه . لهذا فلقد فضلنا أن نجعل وراء رواق هذا الطابق بهواً كبيراً واسعاً غير مقسم ، لكي تعرض فيه جميع قطع النحت والتصوير الثمينة التي وجدت في بقية أجنحة القصر الغربي والشمالي والجنوبي (انظر اللوح ٧ ، الصورتين ١ و ٢) .

وصب السقف العلوي على ارتفاع (٦٫٨٠ أمتار) في السنة (١٩٤٨) . ويتلاءم هذا الارتفاع مع ارتفاع البرجين الخارجيين ، وجعلت لهذا البهو ، سلسلة من النوافذ في أعلى جداره الجنوبي ، لكي يأخذ منها النور الذي يحتاج إليه . ثم جعل للرواق الخارجي المشرف على الباحة لهذا الطابق ارتفاع قدره (٥٫٨٠ م) . ولم نرغب إعادة إنشاء أعمدة هذا الرواق كلها ، لأن ارتفاع الرواق الأخير اعتباري . لهذا فقد تركناها مقطوعة الجذوع لتبيان ذلك . ومما يلاحظ أن سقف هذا المكان المستند على عوارض ضخمة من الاسمنت المسلح ، يغطي جزء الباحة الذي أعيد إنشاؤه ، وذلك لوقايتها من العوارض الجوية ، ولحفظ القصر المشاد ، حفظاً جيداً .

وسلخنا العام (١٩٤٩) في إنهاء كل ما تبقى من الأعمال التي تقدم ذكرها ، استعداداً للشروع في أعمال العرض الفنية التي جرت على نطاق واسع في السنة (١٩٥٠) . فعلقت النوافذ المخرمة التي أنشئت خلال خمسة عشر عاماً ، من جمع القطع الجصية المنحوتة والملتقطة ، في المواضع التي كانت لها في الطابقين العلوي والسفلي وإعادة تركيبها ، وسيأتي عنها الكلام في غير هذه الفقرة [٤] ، وفرشت أرض القاعتين والحجرات الصغيرة بطبقة من الاسمنت ، وصبغت باللون الأحمر ، محاكاة لما كانت عليه في الزمن القديم . وكذلك فرشت أرض الفسحة الواقعة

---

(١) انظر في البحثين الآتيين :
آ) جوسان وسافنياك المصدر المتقدم ، ص : ٥١ وما بعدها .
ب) سوفاجه ، الجريدة الأسيوية المجلد ٢٣١ ، ص : ١٧ — ١٨ .

(٢) وهذه الفرضية الثانية أضعف من الأولى .

(٣) يظهر أن سقف هذا الرواق كان مائلا ميلا خفيفاً على الباحة ، كما جعلنا ذلك في (اللوح ٤ ، الصورة ١) .

(٤) وما تزال أعمال جمع بعضها الآخر ، وتركيبها ، قائمة في المعمل الفني لمديرية الآثار العامة حتى الآن .

أمام المدخل والبرجين الخارجيين ، ببلاطات من الاسمنت الأبيض [1] ، بعد أن سلحت بقضبان حديدية على طريقة خاصة ، ابتكرت أصولها في المتحف . وكانت أبعاد هذه البلاطات نفس أبعاد البلاطات الحجرية الجصية الأصلية . وتتراوح هذه الأبعاد بين (٥٠ سم × ٥٠ سم) و (٨٢ × ٨٣) . وفرشنا كذلك أرض الرواق والباحة الداخلية ، ببلاطات من هذه الأبعاد ، مماثلة تماماً للبلاطات الأصلية ، وخططنا في طرف الباحة جزءاً من الأخدود الذي كان يطوف بها لتجتمع فيه مياه الأمطار . وقد تركنا معتمدين قاعدتي البرجين الخارجيين ، وقواعد أعمدة الرواق الداخلي مكشوفة ، مع أنها كانت مستورة قديماً ، وذلك إظهاراً لجمال نحتها على أشكال محززة قبل أن تدخل في بناء قصر الحير الأصلي .

وطلينا جدران القصر بلون أبيض جصي يحاكي لونه القديم . أما الجدران المضافة اليه اقتضاءاً لجعله جزءاً من المتحف . فقد طليناها بلون أبيض يفترق عن اللون الأول قليلاً . ثم انصرفنا الى إعادة طلي جدران قاعتي وحجرات البيتين في الطابق الأسفل بالألوان المشابهة لألوانها القديمة ، وإلى إنشاء المواضيع الهندسية وغيرها التي كانت لها ، مستندين على المعالم التي أظهرتها الحفريات . وأخيراً أعدنا انشاء تيجان الرواق السفلى ، وعلقنا ألواح الشرفة العلوية ، والجبهة الداخلية ، وبعض النوافذ والأقواس التي تمت إعادتها ، على جدران الباحة الجنوبي ، وجداري البهو الكبير العلوي الشمالي والجنوبي ، وعلى بعض القواعد في هذا البهو والباحة السفلية ، ووضعنا اللوحين الجداريين الكبيرين المصورين في الجدار الغربي والشرقي من البهو (الألواح ٥و٦و٧و٨) .

واليكم وصف هذه الأعمال والآثار بشيء من التفصيل :

١٤ — المواضيع الملونة والمشاهد المصورة المعادة في قصر الحير الغربي :

سبق أن ذكرنا اننا أعدنا تلوين القاعتين (٦) و (٧) والحجرات المتصلة بهما . وكان ذلك أننا اتخذنا كمواضيع زخرفية ، النماذج الثانية ، التي ذكرها شلومبرجه في بحثه عن التصوير في قصر الحير [2] . وتنص هذه النماذج على تنظيم زخرفة تقلد عروق المرمر الطبيعية في المنطقة السفلية من القاعتين والحجرات ، وزخرفة تشبه سنابل القمح الكبيرة في الزوايا ، وهذه النماذج كانت تزين كل قاعات البيوت الستة والغرف الملحقة بها ، وبعض الغرف الأخرى . وتختص أنه لا يستخدم فيها إلا عدد قليل من الألوان ، وهي :

(١) أصول هذه البلاطات من حجر الجير الأبيض ، ولم نود إعادتها منه لضعف مقاومته ، وكثرة تكاليفه .
(٢) شلومبرجه ، المصدر المتقدم ص : ٣٢٤

الأحمر الآجري ، والأسود ، والأبيض ، والبرتقالي ، والخمري الفاتح ، والخمري الغامق ، وأنها ذات مواضيع هندسية بسيطة ، أو محولة عن أصول نباتية ، دون أن تحوي أية كائنات حية أو مواضيع رمزية . ومن هذا فإن تأثيرها يتجه خاصة إلى الإحساس . وعلى الرغم من تشابهها في كل من القاعتين والحجرات الملحقة بهما فإنها لا تخلو من الاختلافات التي يجدر ذكرها .

١٥ — زخارف القاعة (٦) :

تتألف زخارف هذه القاعة من عدة مناطق أفقية متوازية ، وهي تتبدى للناظر على الشكل الآتي :

آ) منطقة ضيقة تمس أرض القاعة ، وهي حمراء كامدة ، تمتد بلون واحد على كل الجدران ، وعرضها (١٧ سم) .

ب) منطقة من المربعات ، يبلغ عرضها نحو (٩١ سم) . وينقسم كل مربع إلى أربعة أنصاف معينات متقابلة ذات سطوح ممتلئة بخطوط متموجة ومتوازية سوداء وخمرية فاهية على أساس جصي (كريم) .

حـ) خط أسود غليظ عرضه (٢٫٥ سم) .

د) خط برتقالي غليظ جداً ، وعرضه (٦ سم) .

هـ) منطقة بيضاء ليس فيها شيء من الزخارف . وعرضها (٧١ سم) .

و) » خمرية غامقة وهي خالية من الزخارف . وعرضها (٧٥ سم) .

ز) » بيضاء » » » » (٧١ سم) .

وتفصل هذه المناطق الثلاث الأخيرة عن بعضها بخطوط عريضة متوازية معها . أما السنابل فإنها تزين زوايا هذه القاعة ، وترتسم على طرفي الجدارين المتقاطعين بلون أحمر كامد . ويبلغ طول كل منها (٢٢٠ سم) . وتتألف من قاعدة على شكل ثلاث طبقات من المسننات المتعاقبة . ثم يعلو هذه المسننات عدد من الأوراق المزدوجة المحولة عن عناصر نباتية (انظر اللوح ١٥ ، الصورتين ١ و ٢) .

١٦ — زخارف الحجرة (٢) :

وهي تشبه زخارف القاعة السابقة ، مع بعض الاختلافات . وهي كما يلي :

آ) منطقة ضيقة حمراء كامدة . وعرضها (١٢ سم) .

ب) خط اسود . وعرضه (٢،٥ سم) .

ﺣ) منطقة من المربعات التي ينقسم كل منها إلى أربعة أنصاف من المعينات المتقابلة ، غير أن سطوحها هنا ممتلئة أولاً بخطوط مستقيمة متوازية سوداء وخمرية فاهية (مع أن هذه الخطوط كانت متعرجة في الغرفة السابقة) ، ثم تأتي خطوط سوداء وخمرية فاهية متعرجة . ويلاحظ أن في مربعات الدعامة الضخمة الواقعة في منتصف هذه الحجرة أنصاف معينات ذات اضلاع كثيرة التعرج .

د) خط أسود . عرضه (٣ سم) .

ﻫ) منطقة برتقالية ذات لون واحد . عرضها (١٠ سم) .

و) خط أسود . عرضه (٢،٥ سم) .

ز) منطقة بيضاء عريضة . عرضها (٨٨ سم) .

ح) » صخرية غامقة . » (٩٨ سم) .

ط) » بيضاء . » (٨٠ سم) .

ي) جزء غير تام من منطقة برتقالية كامدة اللون ومائلة إلى اللون البني [1] .

أما سنابل الزوايا فتشبه تماماً سنابل زوايا القاعة المتقدمة . ويبلغ ارتفاع [2] إحداها (٢،٣٠ م) .

١٧ — زخارف الحجرة رقم (٤) :

وتشبه مواضيع زخارف هذه الحجرة وألوانها مواضيع وألوان زخارف القاعة والحجرة المتقدمتين أيضاً ، مع بعض الاختلافات . ويمكن إجمالها بما يلي من الأسفل إلى الأعلى :

آ) منطقة حمراء كامدة وعرضها (١٩ سم) .

ب) خط أبيض غليظ وعرضه (٣ سم) .

ﺣ) خط أسود غليظ » (٢،٥ سم) .

د) منطقة المربعات التي يقسم كل سطح منها الى أربعة أنصاف من المعينات المتقابلة . وأضلاع هذه وسطوحها مملوءة بخطوط مستقيمة مسننة . وهي هنا كثيفة ومتراصة ، أكثر مما هي عليه في معينات بقية الغرف ، ويلاحظ أنه ترافق الخطوط السوداء والخمرية الفاهية

(١) وهنا تنتهي سوية الحفريات ، ولا يعرف فيما إذا كانت توجد منطقة أخرى أم لا .

(٢) تختلف ارتفاعات بقية السنابل باختلاف سلامة الجدران التى أظهرتها الحفريات .

خطوط أخرى بيضاء مرتسمة على أساس جصي (كريم) . ولا تختلف مربعات الدعامة التي في وسط الجدار الشرقي للغرفة عن بقية مربعات الجدران .

هـ) خط أبيض غليظ . وعرضه (٢و٥ سم) .

و) منطقة ضيقة متألفة من خطوط متوازية دقيقة سوداء وبيضاء . وعرضها (٩و٥ سم) .

ز) منطقة بيضاء ذات لون واحد . » (٨٢ سم) .

ح) » خمرية غامقة . » (٨٩ سم) .

أما السنابل فإنها تشبه سنابل القاعة والحجرة المتقدمتين ، ما عدا قواعدها المتألفة من طبقتين فقط من المسننات تحدثان فيما بينهما زوايا قائمة .

١٨ — بعض نماذج تصويرية كانت تزين عدة حجرات في أجنحة قصر الحير الغربي التي لم تنشأ :

ثم اننا رغبنا أن نعرض في هذه القاعة نماذج أخرى من مواضيع التصوير على الجدران التي كانت تزين بقية قاعات القصر وحجراته في الأجنحة الأخرى . فأفسحنا مكاناً في أسفل الجدار الشمالي من القاعة (٦) لتمثيل أربعة مواضيع ، الأول مأخوذ من زخارف الحجرة (٤٩) ، والثلاثة الأخرى من زخارف الحجرة (٤٥) .

آ — الموضوع الأول ، انموذج من زخارف الجدار الشمالي في الحجرة (٤٩) : وهو مربع كبير يحوي في داخله عدة صفوف من المربعات السوداء غير المنتظمة تماماً ، والمنشأة على شبكة متصلة بعضها بواسطة معينات صغيرة . وفي داخل كل مربع شكل خماسي أو سداسي أو ثماني مرسوم باللون الخمري الغامق . وفي داخله شكل يماثله مرسوم باللون الأسود . ويوجد شكل باللون الأصفر داخل الشكل الأسود . وأخيراً تتوسط نقطة سوداء هذا الشكل الأخير . أما المعينات فيوجد داخل كل منها معين أصغر من نفس اللون الأسود (اللوح ١٢ ، الصورة ١ الشكل ١ من اليمين) .

ب — الموضوع الثاني ، انموذج أول من زخارف الجدار الشمالي في الحجرة (٤٥) :

وهو مربع كبير يحوي عدداً كبيراً من متوازيات المستطيلات التي تجتمع في وسطه على شكل نجمي مثمن ، ثم تملىء بقية الفراغات الناشئة محدثة صفوفاً منظمة ضمن أربعة أنصاف من المعينات المتقابلة . ويتألف محيط كل متوازي المستطيلات من خطوط سوداء ، وفي داخله متوازي المستطيلات آخر من لون خمري فاهي . وفي داخل هذا ، شكل مماثل صفر ليموني ، وأخيراً شكل رابع أسود في وسطه نقطة كبيرة (اللوح ١٢ ، الصورة ١ ، الشكل ٢) .

ح — الموضوع الثالث ، انموذج ثان من زخارف الجدار الشمالي في الحجرة (٤٥) :

وهو مربع كبير يحوي في داخله عدة صفوف من تويجات أزهار متقابلة ، متألفة من تداخل ثلاثة خطوط خمرية فاهية ، ثم من معين أو شكل رباعي أسود في الوسط . وبين هذه الأزهار أشكال مثمنة متألفة من تداخل ثلاثة خطوط الأول والثالث أسودان ، والثاني خمري فاهي (اللوح ٢١ ، الصورة ١ ، الشكل ٣) .

د — الموضوع الرابع ، انموذج ثالث من زخارف الجدار الشمالي في الحجرة (٤٥) :

وهو مربع كبير يحوي معيناً رؤوسه في منتصفات أضلاع المربع ، وسطحه مقسوم الى أربعة معينات صغيرة . وفي سطح كل معين صغير أربعة مثلثات قائمة الزاوية ، ويتألف كل من هذه المثلثات من محيط أسود ، داخله مثلث أصغر منه ذو لون خمري غامق ، ثم مثلث أصفر ليموني ، ثم مثلث أبيض فمثلث أسود ، وما تبقى سطح خمري (اللوح ١٢ ، الصورة ١ ، الشكل ٤) .

١٩ — زخارف القاعة رقم (٧) :

وتختلف زخارف الجدران في هذه القاعة بعض الاختلاف عما يماثلها في القاعة (٦) . وهي تبدو للمشاهد كما يلي :

آ) منطقة حمراء كامدة تمس الأرض .

ب) منطقة المربعات المقسمة الى معين أسود في داخله معينات متداخلة خمرية فاهية وسوداء . وحول المعين الكبير أربعة أشكال لمتوازيات المستطيلات السوداء في داخلها أشكال مماثلة خمرية وسوداء . وذلك في الجدار الشرقي من القاعة فقط (انظر الشكل ١) . أما بقية جدران هذه القاعة فان منطقة المربعات منقسمة الى معين حوله أنصاف معينات ، وفي داخله أشكال مماثلة سوداء وخمرية (انظر الشكل ٢) . وعرض هذه المنطقة (٦٨ سم) .

ح) خط أسود عرضه (٢ سم) .

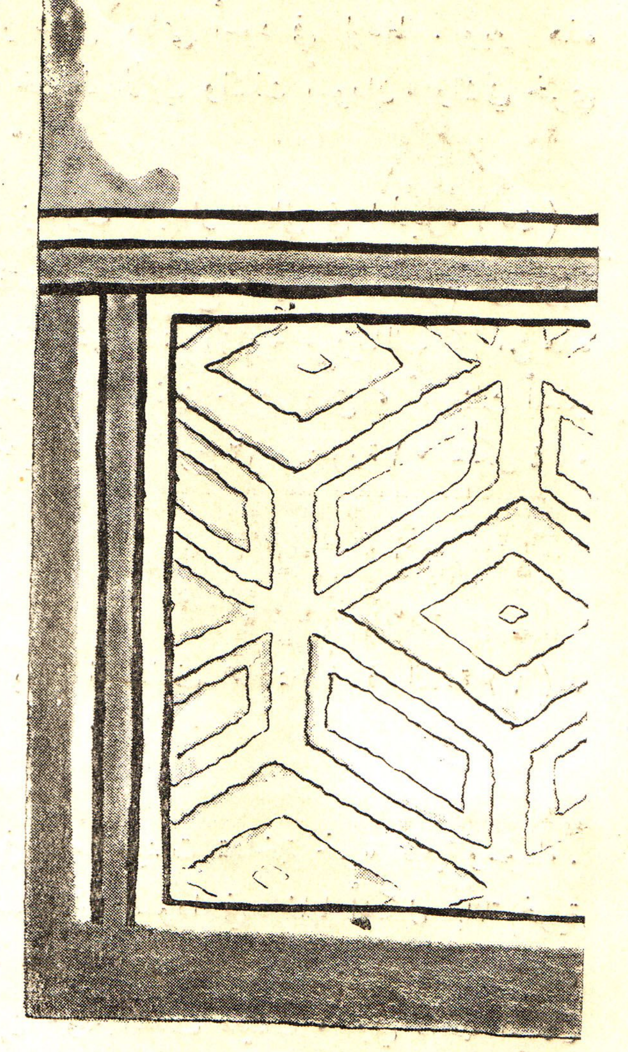
د) منطقة برتقالية عرضها (٥ سم) .

ه) خط أسود عرضه (٢ سم) .

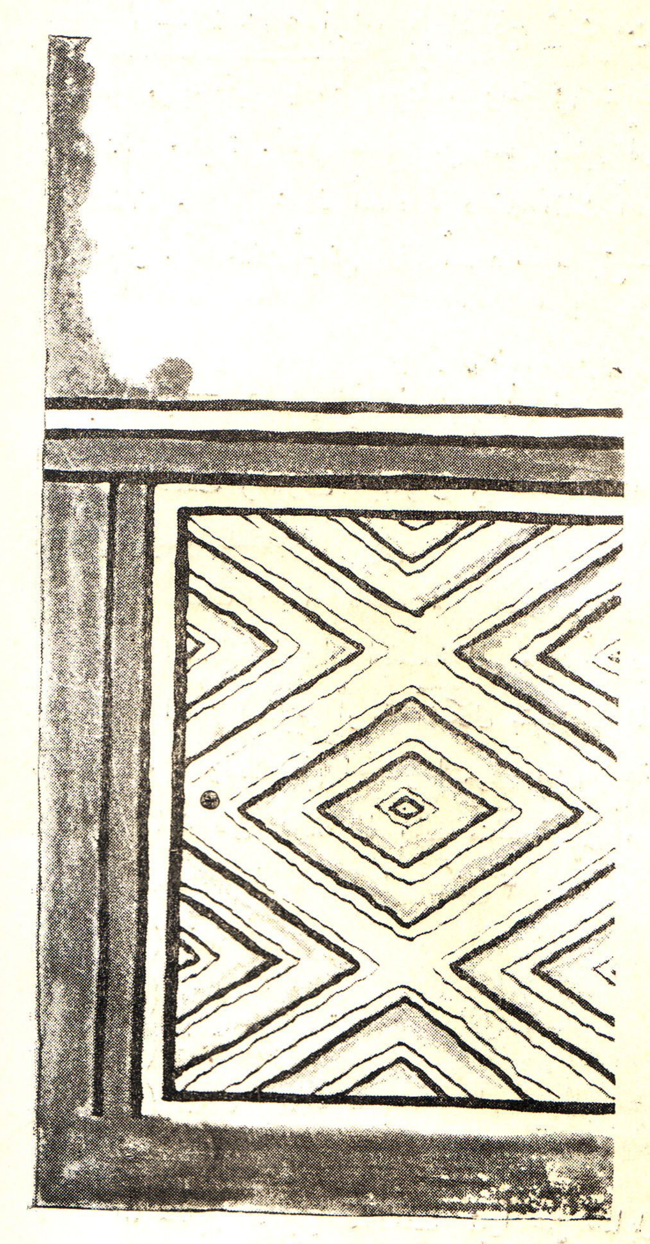
و) منطقة بيضاء عرضها (٣ سم) .

ز) خط أسود عرضه (١ سم) .

أما سنابل الزوايا فتختلف كثيراً عن سنابل القاعة (٦) . اذ أن قواعدها هنا تشبه

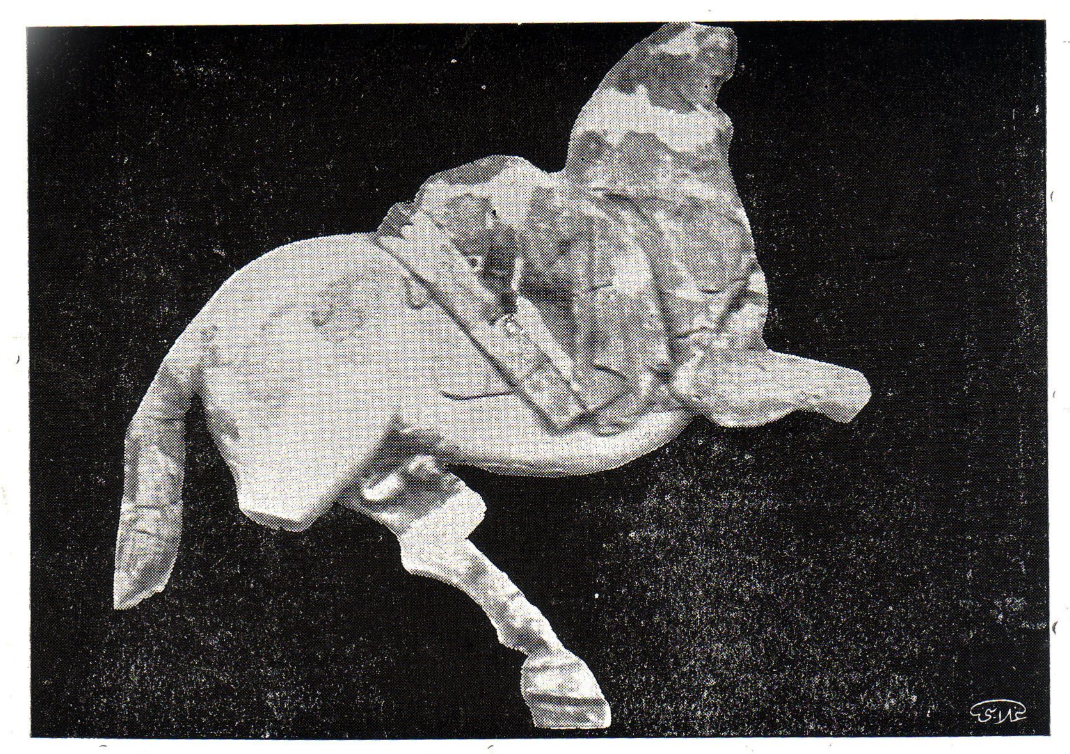


(الشكل ١) .

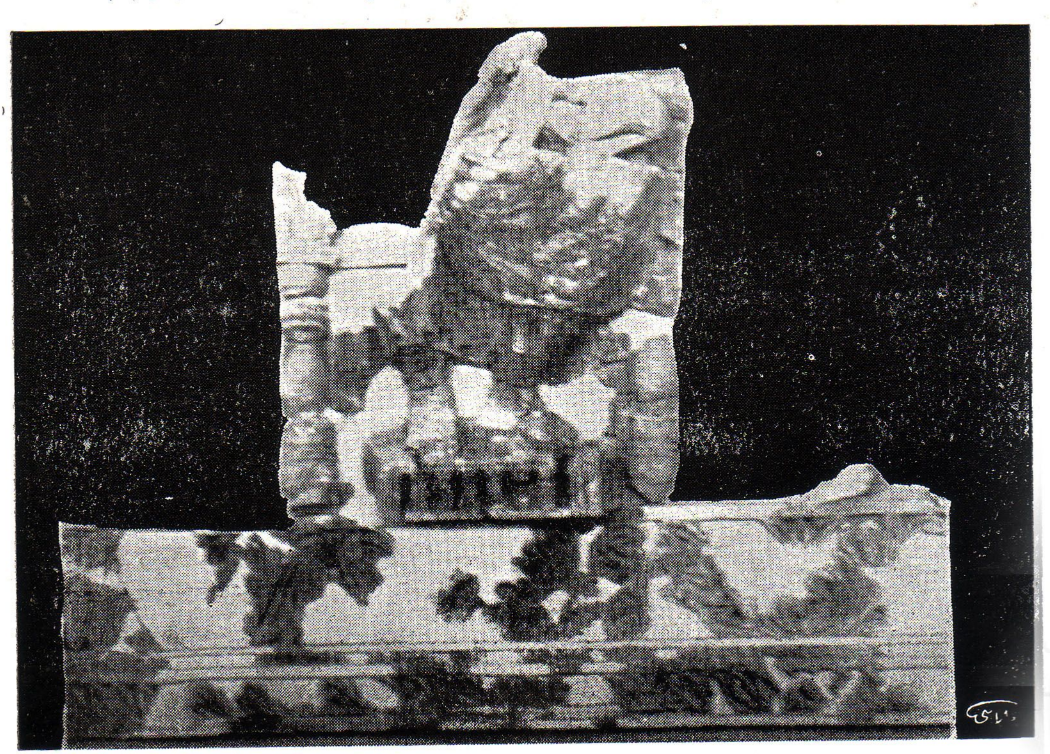


(الشكل ٢) .

اللوح -٩-



١ — تمثال يشاهد فيه فارس على حصانه ، وموقعه في الواجهة الداخلية بين النافذتين (٤) و (٥) .



٢ — رجل جالس على عرش ، وموقعه في الواجهة الداخلية بين النافذتين (٢) و (٣) .

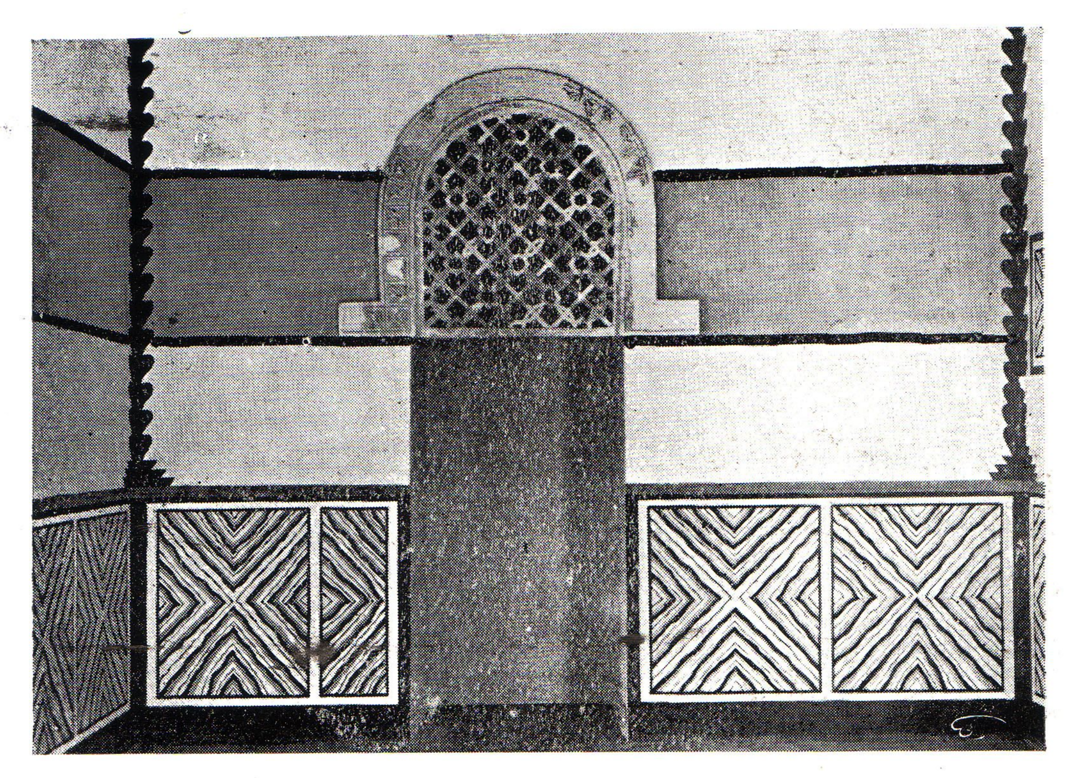
اللوح — ١٠



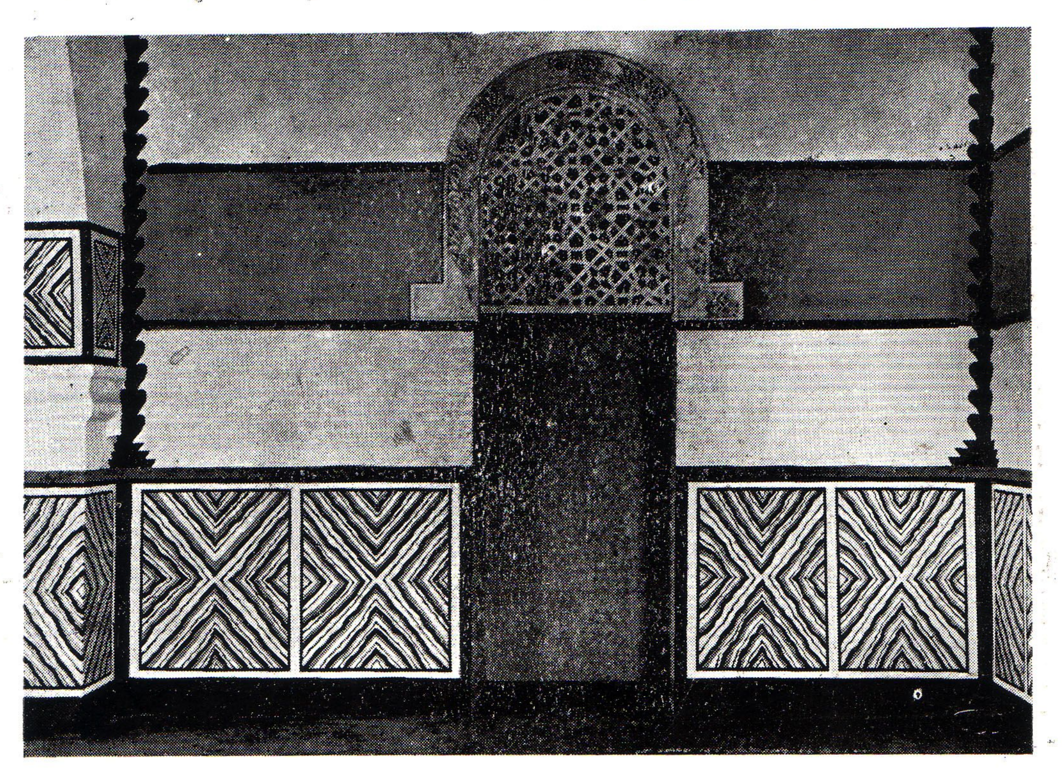
١ — تمثال لأمرأة عارية الصدر وفاقدة الرأس. ولا يعرف موقعه في الواجهة الداخلية .



٢ — تمثال لأمراة مرتدية ثوباً شفافاً . ورأسها مشوه . ولا يعرف أين كان هذا التمثال في الواجهة الداخلية.

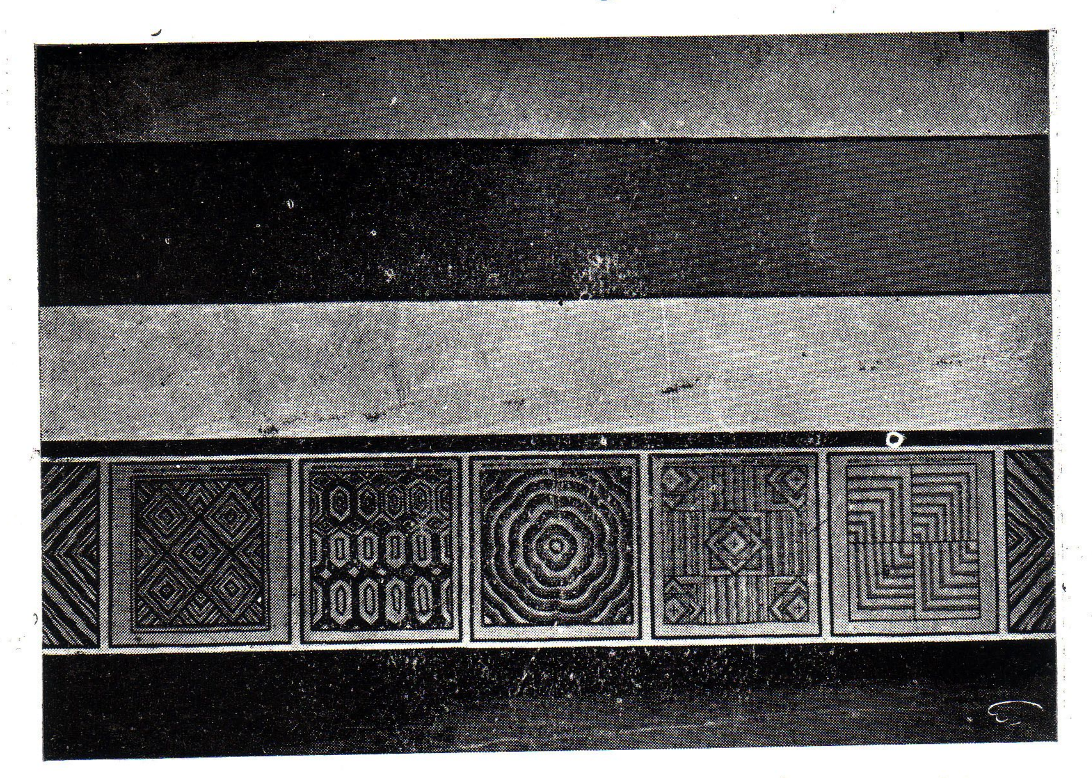


١ — القسم الأيمن من الجدار الغربي للقاعة (٦) ، بعد إعادة تلوينه بالألوان والمواضيع الأصلية ، وتعليق النافذة الجصية (٩١) على باب الغرفة (٨) .

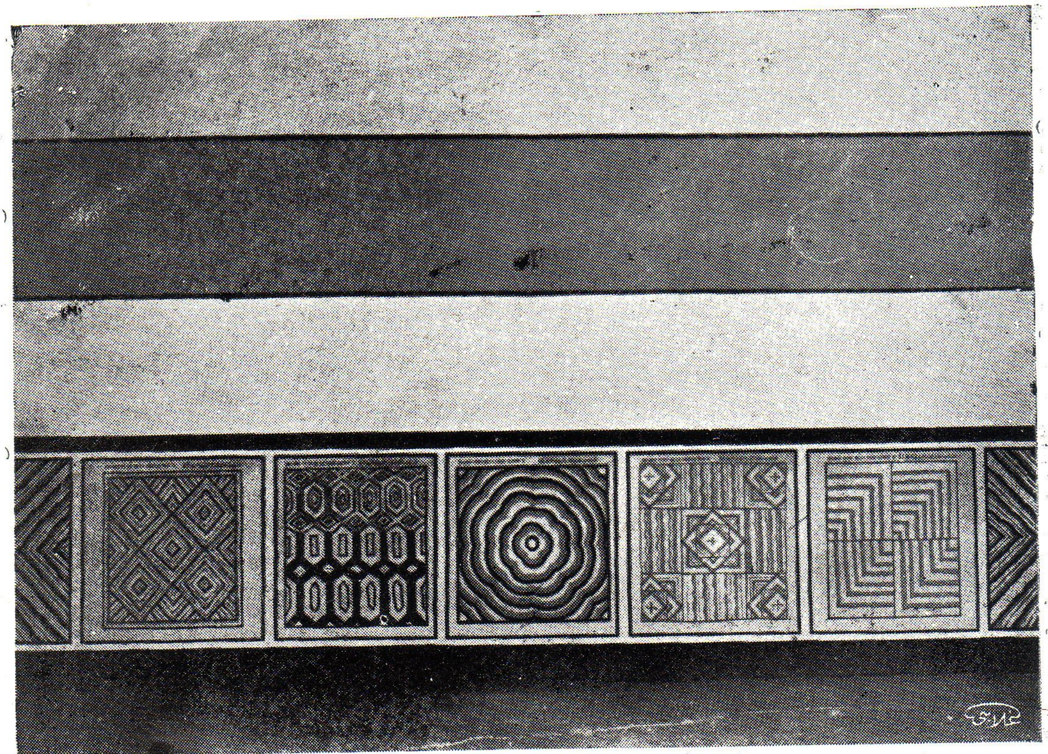


٢ — القسم الأيسر للجدار الغربي للقاعة (٦) ، بعد إعادة مواضيعه الملونة وتعليق النافذة الجصية (٣) على باب الحجرة (١٤) .

اللوح -١٣-



١ — المواضيع المصورة المختلفة التى كانت تزين بها بعض قاعات القصر وحجراته ، والتي أعيد صنع نماذج منها على الجدار الشمالي من القاعة (٦) .



٢ — المواضيع المصورة المختلفة التى كانت تزين بها بعض قاعات القصر وحجراته ، والتى اعيد صنع نماذج منها على الجدار الشمالي من القاعة (٧) .

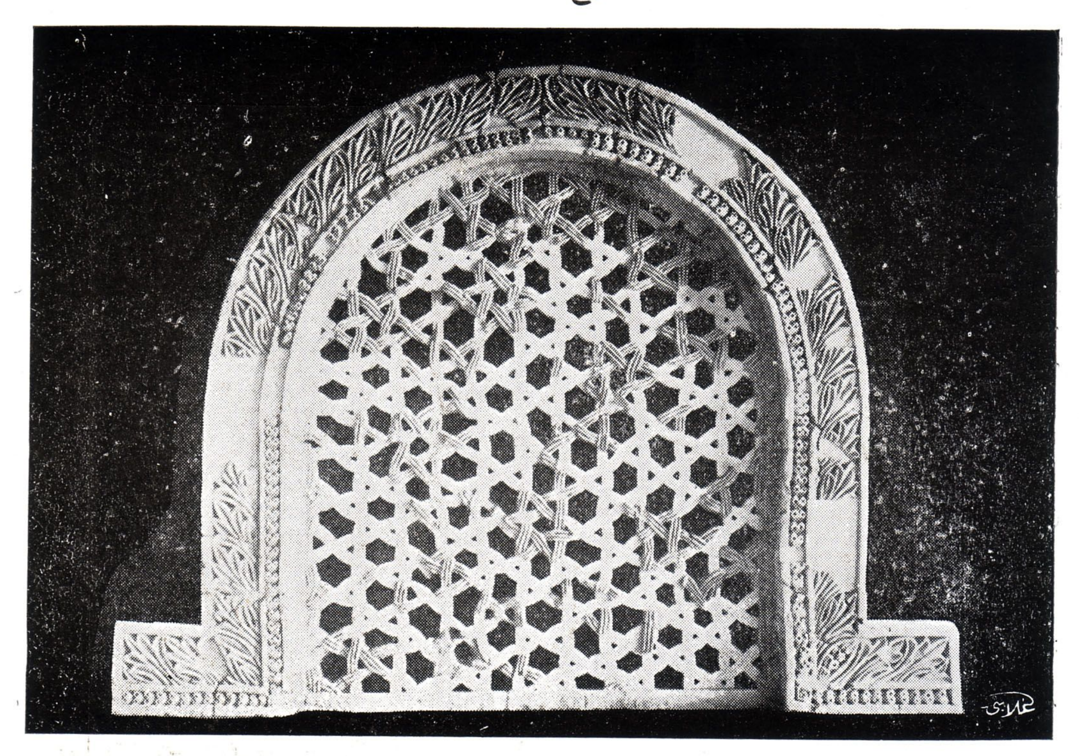
اللوح — ١٤



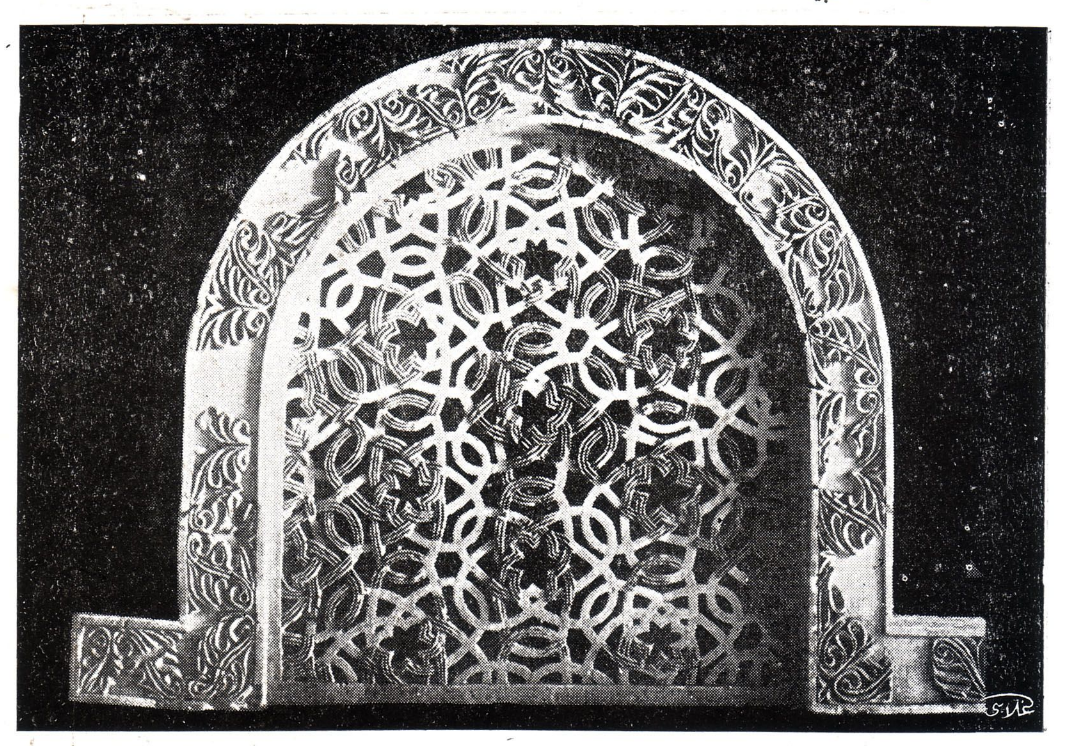
١ — مشهد من صور جدارية أصلية كانت في الحجرة (١٩) من القصر ، وهي تمثل في قسمها العلوي ، ضاربة على عود ونافخاً في مزمار ، وفي قسمها السفلي فارساً ملاحق بعض الطرائد . أعيد انشاء هذا المشهد على الجدار الشرقي من البهو العلوي ، في الجناح المعاد .



٢ — مشهد من صورة جدارية أصلية ، كانت في الحجرة (١٤) من القصر ، وهي تمثل كائنين خرافيين ، وامرأة تحمل فواكه في ذيل ثوبها .

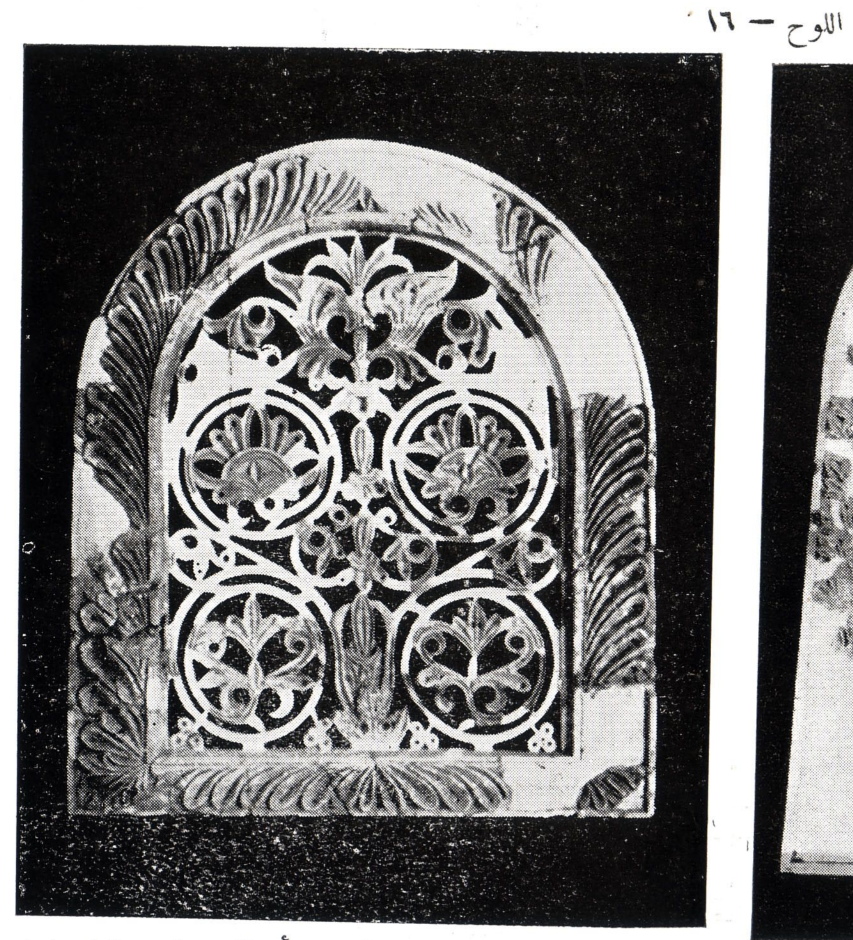


١ — النافذة ذات الرقم (٢٥) ، عثر عليها في أرض القاعة (٧) ، ورممت وعلقت على جدار الباحة الجنوبي .



٢ — النافذة ذات الرقم (٢٨) ، وجدت أجزاؤها في أرض القاعة (٧) ، وأصلحت وركبت ، وعلقت على جدار الباحة الجنوبي .

اللوح — ١٦



١ — النافذة ذات الرقم (٢) . من نوافذ الواجهة الداخلية الست .

٢ — النافذة ذات الرقم (٦) . عثر على أجزائها في ارض القاعة (٦).
وهي معروضة حالياً على الجدار الشمالي في البهو العلوي.

تيجان الأعمدة الدورية ، مقلوبة الى الأعلى ، ويعلو هذه القاعدة أربع أو خمس كرات ملتصقة ببعضها . ثم يأتي صف الأوراق المزدوجة . وأخيراً فان ارتفاعاتها تختلف باختلاف ارتفاع الجدران التي أظهرتها الحفريات .

وقد أعدنا أيضاً المواضيع الهندسية التي تشبه منطقة المربعات المقسمة الى معينات . وهي تزين منشا القوس المدور الذي يستند على دعامتين في هـذه القاعة ، ويقسمها الى قسمين متساويين . وعدد هذه المواضيع ثلاثة في كل طرف . اثنان جانبيان وواحد متوسط . وخطوطها سوداء فقط ، وتقع على بعد (١٧٣ سم) من أرض القاعة . ويبلغ ارتفاعها (٧١ سم) .

٢٠ — زخارف الحجرة (٣) :

ولا تفترق هذه الحجرة بزخارفها عن زخارف القاعتين والحجرات المتقدمة الا بتفاصيل طفيفة جداً . وهي تبدو للمشاهد كما يلي :

آ) منطقة حمراء كامدة اللون . يبلغ عرضها (١١ سم) .
ب) خط أبيض غليظ . » عرضه (٣ سم) .
حـ) خط خمري فاهي . » عرضه (١٫٥ سم) .
د) منطقة المعينات المتألفة من خطوط غليظة خمرية فاهية ومستقيمة ، ثم من خطوط سوداء غليظة متموجة ومن خطوط سوداء عريضة متموجة ويبلغ عرضها (١١٤ سم) .
هـ) خط أبيض غليظ . » عرضه (٢٫٥ سم) .
و) عدة خطوط سوداء وبينها خطوط برتقالية وسوداء » عرضها (١٢ سم) .
ح) منطقة بيضاء عريضة ذات لون واحد . » » (٧٥ سم) .
ط) » خمرية غامقة » » » » (٧٥ سم) .
ى) » بيضاء » » » » » (٧٢ سم) .
س) بعض بقايا من منطقة بنية يتراوح عرضها بين (٢٠ — ٧٥ سم) .

أما سنابل هذه الغرفة فان قواعدها تتألف من أربع طبقات من المسننات ، وجذوعها من تعاقب ثماني عشرة كرة صغيرة يعلو بعضها بعضاً .

٣١ — زخارف الحجرة (٥) :

وأخيراً فان هـذه الحجرة تشبه بزخارفها الحجرة المتقدمة الا فيما يتعلق بحذف بعض الخطوط وإضافة بعضها . وتتألف مواضيعها كما يلي :

آ) طبقة كامدة حمراء اللون	عرضها (١١ سم) .	
ب) خط أبيض غليظ	عرضه (٣ سم) .	
ج) طبقة المعينات كما ذكرنا في الحجرة (٣)	عرضها (١١٣ سم) .	
د) خط أبيض غليظ	عرضه (٢ سم) .	
هـ) خطوط سوداء بينها خطوط برتقالية وبيضاء	عرضها (١٤ سم) .	
و) منطقة عريضة بيضاء ذات لون واحد	» (٨٨ سم) .	
ز) خط بني	عرضه (٢,٥ سم) .	
ح) منطقة خمرية غامقة	عرضها (٨٨ سم) .	
ط) » بيضاء	» (٨٥ سم) .	
ي) بعض بقايا من منطقة بنية	» (٢٠ سم) .	

ولكل من السنابل في زوايا هذه الغرفة ، قاعدة فيها حلزونتان مقلوبتان الى الأعلى كتاج العمود الدوري [١] ، وجذع متألف من صف من الأوراق المزدوجة [٢] ، تبدأ اعتباراً من الطبقة الخمرية الغامقة (ح) .

٣٢ — نماذج الزخارف الأخرى المنشأة في قاعدة الجدار الشمالي للقاعة (٧) :

ورأينا أيضاً أن نستفيد من قاعدة الجدار الشمالي في القاعة (٧) ، لإعادة بعض الزخارف الهامة التي كانت تزين بعض القاعات والحجرات الأخرى في قصر الحير . وهي كما يلي :

آ — انموذج من زخارف الجدار الغربي في الحجرة (٤١) : وهو مربع مقسوم بواسطة خطين متعامدين الى أربعة مربعات متساوية . وفي كل منها خطوط متعرجة سوداء وخمرية فاهية على شكل زوايا قائمة . واتجاه هذه الزوايا في المربعين السفليين يخالف اتجاهها في المربعين العلويين (اللوح ١٢ ، الصورة ٢ ، الشكل ١) .

(١) كما كان شأنها في القاعة (٧) .

(٢) ليست فيها كرات كسنابل الحجرة (٣) .

ب — انموذج آخر من زخارف الجدار الشرقي في الحجرة (٤١) : وهو مربع سطحه مقسوم الى عدة مربعات ، ومستطيلات صغيرة . وفي مربع المركز ومربعات الزوايا أشكال نجمية متداخلة ، أضلاعها سوداء وخمرية فاهية (اللوح ١٢ ، الصورة ٢ ، الشكل ٢) .

حـ — انموذج من زخارف الجدار الغربي في الحجرة (٥٤) : وهو مربع مملوء بالدوائر المتداخلة التي يمكن أن تنشأ على صفحة ماء هادىء اذا أُلقي فيه حجر . ولكل من هذه التموجات المتداخلة هنا ثمانية أضلاع ، وهي مرسومة بخطوط سوداء عريضة ، ترافقها خطوط خمرية غامقة ، ثم خطوط صفراء على أساس (كريم) (اللوح ١٢ ، الصورة ٢ ، الشكل ٣) .

د — انموذج من زخارف الجدار الجنوبي في الحجرة (٤٨) : وهو مربع مملوء بثلاثة صفوف من الأشكال السداسية المتوازية السوداء التي تتصل ببعضها بأشكال معينية سوداء أصغر منها . وسطوح الأشكال السداسية السفلية الداخلية مشغولة بأشكال سداسية أيضاً ، أما الأشكال السداسية الوسطى ، ففي داخلها أشكال مستطيلة . وأخيراً فان الأشكال السداسية العلوية مشغولة بزوج من الأشكال السداسية المتداخلة .

ثم ان الفراغات الحادثة في القسم العلوي من المربع ملونة بالأصفر الفاقع ، أما فراغات القسم السفلي فهي ملونة باللون البني (اللوح ١٢ ، الصورة ٢ ، الشكل ٤) .

و — انموذج من زخارف الجدار الشمالي في الحجرة (٤٣) : وهو مربع مقسوم الى خمسة معينات داخلية . وسطح كل منها مشغول بمعينات متداخلة ، أضلاعها ملونة بالألوان الخمرية الغامقه ، فالخمرية الفاهية ، ثم السوداء . أما الفراغات الحادثة بين المعينات وأضلاع المربع الكبير فهي مشغولة بخطوط ملونة بالألوان المذكورة ، ومعاكسة لخطوط المعينات الخمسة (اللوح ١ ، الصورة ٢ ، الشكل ٥) .

٢٣ — اللوحان الجداريان المصوران في الطابق العلوي :

واهتمت مديرية الآثار العامة أيضاً بايجاد مكان مناسب في الجناح المعاد للوحين جداريين مصورين وجدا في الحجرتين (١٤ و ١٩) خلال حفريات القصر ، ونقلا الى متحف دمشق ، حيث عرض منهما جزءان في الجناح الاسلامي الموقت [1] . ورأينا أن نعرضهما مقابل

(١) طالع الدراسة التامة التي نشرها دانيل شلومبرجه عن هذين اللوحين في مجلة سيريا الجزء الخامس والعشرين بعنوان :
Daniel Schlumberger : Deux fresques Omeyyades, Syria, Tome XXV. p. 48 et S.

بعضها في الجدارين الشرقي والغربي من الصالون العلوي . ولزم لذلك إنشاء هيكلين مستطيلين من العوارض الخشبية الضخمة بحجم (٥٫٩٥ م × ٤٫٥٠ م) وإركازهما على قواعد متينة، وتقسيم سطحها بعوارض أخرى طولانية وعرضانية الى عدد من المربعات الصغيرة التي ثبت عليها اللوحان المصوران بالأسلاك الحديدية وخيطان القنب، وحيل بينها وبين الجدارين بمسافة (٠٫٤٥ م) وذلك لتسهل على العمال الفنيين، معالجة ما قد يطرأ عليهما في المستقبل. ثم وصل بينهما وبين الجدارين بألواح خشبية، وأصبح لهما شكلا صندوقين بارزين (انظر اللوح ١٣، الصورة ١، والصورة ٢).

ولا يخفى أن اللوح الأول يمثل ثلاثة مشاهد. ويرى في الطرف الأيسر للمشهد الأول امرأة تضرب على العود، وشعرها الأسود مجتمع خلف رأسها، ولابسة معطفين أخضر وأبيض، وتحتهما ثوب بنفسجي يجتمع بنطاق حول خصرها، وممسكةً عوداً عليه ستة أوتار. وإلى جانبها جرة، وفي الطرف الأيمن من هذا المشهد رجل نافخ في المزمار حول عنقه وشاح أخضر. وهو مرتدٍ معطفاً أحمر وسروالاً أحمر منتفخاً. وأمامه شكل كالشجرة فيه ما يشبه أربع زهرات كبيرةً فوق بعضها. ويلاحظ أن الضاربة على العود والنافخ في المزمار مجعولان في محرابين.

أما المشهد الثاني فهو تحت المشهد الأول ويفصله عنه عدة خطوط حمراء، ويمثل فارساً حليق اللحية يشد قوسه وهو على جواده: وهو مرتدٍ سروالا منتفخاً أخضر وفوقه معطف أحمر. ويظن أن هذا المعطف فوق ثوب أحمر أيضاً، وفي وسطه نطاق من جلد. وله وشاح أخضر يتطاير وراءه. ثم ان الجواد أسود، وذنبه وحوافره وثننه حمراء، وسرجه مغطى بقطعة حمراء من القماش، وترتبط به جعبة السهام الجلدية، والمهازان أحمران أيضاً. وأمام الفارس غزالة تعدو. وهي تلتفت إلى الخلف، وإلى جانبها غزال قد أردي قتيلاً.

واخيراً فإن المشهد الثالث، الذي يمثل كلباً وأرنباً وعبداً يجر حيواناً خلفه تتبعه حيوانات أخرى، مشوه جداً. فلم نجد حاجة لعرضه مع المشهدين السابقين اللذين أحطناهما بما كان لهما من اطار فيه مواضيع هندسية على شكل معينات متتابعة ومحاطة بأنصاف معينات أخرى حاوية على زهرات ذات أربع تويجات.

ثم أن اللوح الثاني يمثل ضمن دائرة كبرى مركزية صورة نصفية لامرأة ممثلة من وجهها الأمامي. وشعرها مقسوم إلى قسمين بواسطة فرق متوسط، وجدائلها مزينة بعصائب وحلي. وجيدها محلى بقلادة تحتها ثعبان ملتف حول عنقها، وتمسك يداها قماشاً فيه فواكه مختلفة.

ويحيط بالدائرة إطار عريض أحمر مزين بسلسلة من الدوائر الصغيرة التي تتوسط كل منها طاقة صغيرة من الأزهار .

والدائرة المتوسطة تقسم ما تبقى من سطح هذا اللوح الجداري إلى قسمين : قسم علوي محفوظ وقسم سفلي مشوه جداً ، ولم نجد فائدة لإعادة عرضه ، أما القسم العلوي ففيه كائنان ميتولوجيان . وهما ساتنوران بحريان ، ونصفها السفلي أسود وحيواني كأنه مؤخرة كلب ، وينتهي بذنب ثعبان كبير ، ونصفها العلوي انساني . ولكل منهما رأس رجل ملتح ، ويمسك رمحاً باليد اليسرى ، ويبسط اليد اليمنى . ثم أن القسم السفلي من هذا اللوح الجداري يحوي ثعلباً يطعم من عنقود من الأعناب وبعض الحيوانات والطيور الأخرى . ويلاحظ أن كل هذه الأشكال تملىء القسمين العلوي والسفلي ، ولا تترك فيهما شيئاً من الفراغ .

ويحيط بهذا اللوح إطار مؤلف من العروق النباتية المتعرجة ، التي تحوي في كل التواءة من التواءاتها عنقودين . وما تبقى يشغل بعدد من الأوراق والبراعم .

ويقول شلومبرجه [1] إن اللوح الأول مستوحى من النماذج الفنية الايرانية ، وأن اللوح الثاني مستوحى من تقاليد سورية الفنية في العصور الإغريقية الرومانية ، إذ أن مشهد الصيد والبسة الفارس ، وضاربة العود ، والنافخ في الزمر ، ولا سيما زخرفة الاطار كلها مستوحاة من مواضيع الفن الساساني . أما اللوح الثاني ، فانه يستمد عناصره من مواضيع كانت شائعة في الفن الروماني والبيزنطي ، إذ أن الساتنورين وصورة المرأة النصفية التي تشبه صورة الربة جي [2] . وعروق الاطار النباتية شاعت في آخر أزمنة الرومان وفي الأزمنة البيزنطية ، وهي تذكرنا بمواضيع جعلت في بعض ألواح فسيفساء عثر عليها في أنطاكية .

بيد أن التأثير الاسلامي ظاهر فيها أيضاً . إذ أن وجود ركابات الحصان ، ابتكار من ابتكارات الفن الاسلامي ، وأن الفارس الصياد غير متوج ، كما أن بعض العناصر الفنية النباتية تشبه مواضيع واجهة قصر المشتى الأموي ، أو فسيفساء قبة الصخرة ، كما أنه يمكن ايجاد مشابهات بين أسلوب التصوير هنا وأسلوبه في تصاوير قصير عمرة .

وخلاصة القول ان هذين اللوحين الجميلين يدلان دلالة واضحة على أخذ الأمويين بعض عناصر صنعتهم الفنية من ينبوعي الفنين الفارسي والاغريقي ـ الروماني اللذين جريا هنا جنباً الى جنب دون أن يمتزجا .

---

(١) المصدر المتقدم ، ص : ١٠٠ — ١٠٢

(٢) هي ربة الأرض وأم الآلهة في الميتولوجيا اليونانية .

٢٥ – الزخارف الجصية :

وسبق أن ذكرنا أن أهم الأشياء الأثرية المكتشفة في قصر الحير الغربي هي قطع الزخارف الجصية التي أظهرتها الحفريات ، وكان تهدم القصر السبب في تحطيمها إلى عدد كبير من آلاف القطع الصغيرة ، وامتزاجها ببقية الأنقاض . وقد جمعت بعناية زائدة من الأماكن التي تهدمت فيها ، ونقلت الى المتحف ، واتخذت جميع التدابير التي تؤدي إلى تفريقها عن بعضها ، وإعادة إنشاء ما يمكن إعادته منها ، وتركيب بعض المجموعات في الأماكن التي كانت لها في هيكل البناء .

وكان هذا العمل جباراً حقاً ، لأنه استمر خمسة عشر عاماً دون انقطاع ، وأعطى أعظم النتائج عن معظم المواضيع التي طرقها الفنانون الأمويون ، وعن أصول هذه المواضيع في الفنون التي سبقت الفن الاسلامي ، وعن أمكنة هذه الزخارف في قاعات القصر وحجراته ، وعن دورها في الاضاءة والتزيين .

وفي الواقع إذا أضيفت زخارف قصر الحير الغربي إلى زخارف خربة المفجر ، لتألفت منها جميعاً مرحلة مهمة من مراحل تاريخ النحت في سورية . وتختص أنها تستعمل للتعبير عن أفكار ذلك العصر البديعية ، الجص وهو مادة سهلة الصنع ، ولكنها سريعة الانهيار والتحطم . وكان هذا الاستعمال جديداً في بلاد الشام التي ألفت منذ أقدم الأزمنة استخدام الحجر في فنون العمارة والنحت ومشتقاتها وسوف يدوم ما دامت المدنية الأموية ، ويعيش بعدها الى زمن العباسيين (١) . ولا ريب أن السبب في ضمه الى تقاليد البلاد الفنية يعود الى أن الأمويين استخدموا لدى بنائهم قصورهم في البادية عدداً من الصناع والفنانين العراقيين ، الذين ألفوا صنعة الجص في بلادهم (٢) . غير أن المواضيع التي طرقها هؤلاء الفنانون ليست غريبة عن ما تركته الفنون السورية القديمة ، الاغريقية ـ الرومانية والتدمرية والبيزنطية من آثار . مما يدل على وجود عدد كبير من صناع بلاد الشام في قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي ، وغيرهما ، كما يدل على أن التقاليد الفنية السورية ، أخذت تمتزج بالتقاليد الشرقية الساسانية وتفقد صفاتها المميزة الخاصة . وكان هذا الامتزاج مقدمة لنشوء فن جديد ، هو الفن الاسلامي

---

(١) كما تدل على ذلك الأبنية التي عثر عليها في مدينة الرقة على الفرات ، خلال حفريات مديرية الآثار العامة في سنة ١٩٥٠ . (اقرأ التقرير المنشور عن هذه الحفريات في هذا العدد) .

(٢) نعتمد في ذلك على ما ورد في مقال :

R. W. Hamilton: The sculpture of living at Khirbet al Mafjar; The Quarterly of the Departement of Antiquities in Palestine. Vol. XIV. p. 109 et s

او الفن العربي الذي يعتمد في مثله العليا بآن واحد على عناصر الحياة الابداعية للغرب والشرق دون تمييز .

وأهمية زخارف قصر الحير الغربي التي أعيد انشاؤها في متحف دمشق ، منقطعة النظير في ايضاح صفات هذا الفن التي تأكد بعضها فيما ذهب اليه العلماء . فقد ذكر الآثري الألماني أرنست هرزفيلد منذ أكثر من أربعين سنة (١) ، أن الفن الاسلامى الأول كان يوفق بين الأشكال القديمة والحاجات الجديدة ، وينقل من الأولى ما يحلو له من ناحية فنية الى ناحية أخرى ، ومن مادة الى مادة . فيأخذ المواضيع القديمة ويستخدمها بحرية كبيرة ، ولا يتورع من أن يزخرف مثلاً بناءاً بما كان تزخرف به الأنسجة أو الحلي فيما تقدم من الزمن . كما أنه كان فناً جامعاً لا يجد غضاضة أن يتمثل أكثر ما كان في الفنون التي سبقته . وهو في هاتين الحالتين يتبع مبدأين : الأول مبدأ التغير الذي لا يقنع بنوع واحد أو أنواع متعددة من المواضيع ، بل يسعى الى تنويع المواضيع التي يطرقها ولا يرغب إعادتها نفسها (٢) . وفي الواقع يتعذر أن نجد بين كل النوافذ الجصية التي أعيد انشاؤها ، نافذتين متشابهتين كما أن السوريات في الواجهة الخارجية تختلف عن بعضها تماماً ، فبعض جذوعها تشبه جذوع أشجار النخيل ، وبعضها ذات أخاديد عمودية ، وبعضها ذات أخاديد ملتوية ، وبعضها مزين بسعفات النخيل المتعاقبة . والمبدأ الثاني الذي يتبعه هذا الفن هو ملء السطوح المخصصة للزينة ملئاً تاماً . ولدينا أمثلة عن ذلك لا في الواجهتين الخارجية والداخلية لقصر الحير الغربي ، وسيأتي ذكرها فحسب ، بل في واجهة قصر المشتى (٣) وفي ألواح الفسيفساء لقبة الصخرة الداخلية ، وفي ألواح الفسيفساء الخارجية في المسجد الأموي بدمشق وغيرها . وقد وصف السيدان هوتكور وفييت هذا المبدأ الأخير بالخوف من الفراغ ، وذكرا أنه يمنح المواضيع الصغيرة كمالاً كبيراً (٤) على الرغم من أنه خالٍ من الحرية والسرور والبساطة والعظمة ، « وأنه لا يوجد كما يقول المستشرق الكبير ما سنيون بالنسبة ، الى الفنانين المسلمين ، لا أشكال ولا أجسام بل يوجد تركيب ذرات في وقت ما ،

(١) يجدر النظر في كتابه :

E. Herzfeld : Die Genisis der islamischen Kunst und das Mshatta — Problem ,

في Der Islam p. 32.

(٢) يفصل شلومبرجه كثيراً في شرح كل ذلك ويأتي للايضاح بعدة أمثلة . انظر بحثه المذكور سابقاً . ص ٣٥٧ .

(٣) التي قلنا إنه أعيد إنشاؤها في متحف برلين . وقد بلغنا مؤخراً أن الروس نقلوها كما نقلوا غيرها من نفائس هذا المتحف إلى بلادهم عقب استيلائهم على العاصمة الألمانية .

(٤) في كتابه المشهور :

L. Hautecoeur et G. Wiet: Les Mosquées du Caire. Tome I. p. 165

وخط متألف من نقطة متحركة [١] » وأن العربي كغيره من الشرقيين يتأثر خاصة من تكرار المواضيع تكراراً مستمراً . وما الزخارف العربية إلا كالشعر والموسيقى العربيين الذين يتكرران مع الخيال إلى ما لا نهاية ، وفقاً للاحلام التي يسترسل الشرقي اليها بطبعه [٢] .

والذي يمعن النظر فيما أوردناه يجد تناقضاً واضحاً في المبدأين المتقدمين ، لأن التنويع يخالف التكرار . واذا كنا نتمكن بسهولة من ايجاد أمثلة على كل منهما في فن قصر الحير الغربي ، فلأن الخيال العربي الفني كان خصباً جداً في زمن الأمويين ، ولأن طابع العبقرية الأموية كان آنئذ الغنى والترف والاستعانة بكل ما لدى الفنون القديمة من تأثيرات لابتكار (سامفونية) جديدة انسكبت خلال نغماتها ، عواطف وأحاسيس الشاميين آنئذ ، وبلغت حياتهم الابداعية بسرعة مدهشة أعلى نقطة من ذرى الفن العربي الكلاسيكي ، قبل أن تميل الى الهبوط في مدارج مرحلتها الرومانطيكية .

٣٦ — الواجهة الخارجية لقصر الحير الغربي :

ولا ريب أن أهم المجموعات الجصية التي أعيد انشاؤها من زخارف قصر الحير الغربي هي مجموعة الواجهة الخارجية المتألفة من مواضيع كثيرة منتشرة على البرجين المحيطين بالمدخل الشرقي الوحيد ، وفوق هذا المدخل . ويظهر أن الأمويين قلدوا في ذلك لدى تزيينهم واجهات قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي وقصر خزانة ، الأبنية الساسانية ، لأن واجهات الأبنية الرومانية العسكرية الخارجية خالية من الزخارف . أما الأبنية الساسانية كواجهة فيروزآباد في ستزيفون القريبة من بغداد ، وداخل قصر شابور ، فانها كانت مزينة بالأقواس والسويريات والأفاريز [٣] . ولم يعهد لهذه الزخرفة الخارجية مثيل في الأبنية السورية التي سبقت العهد الأموي .

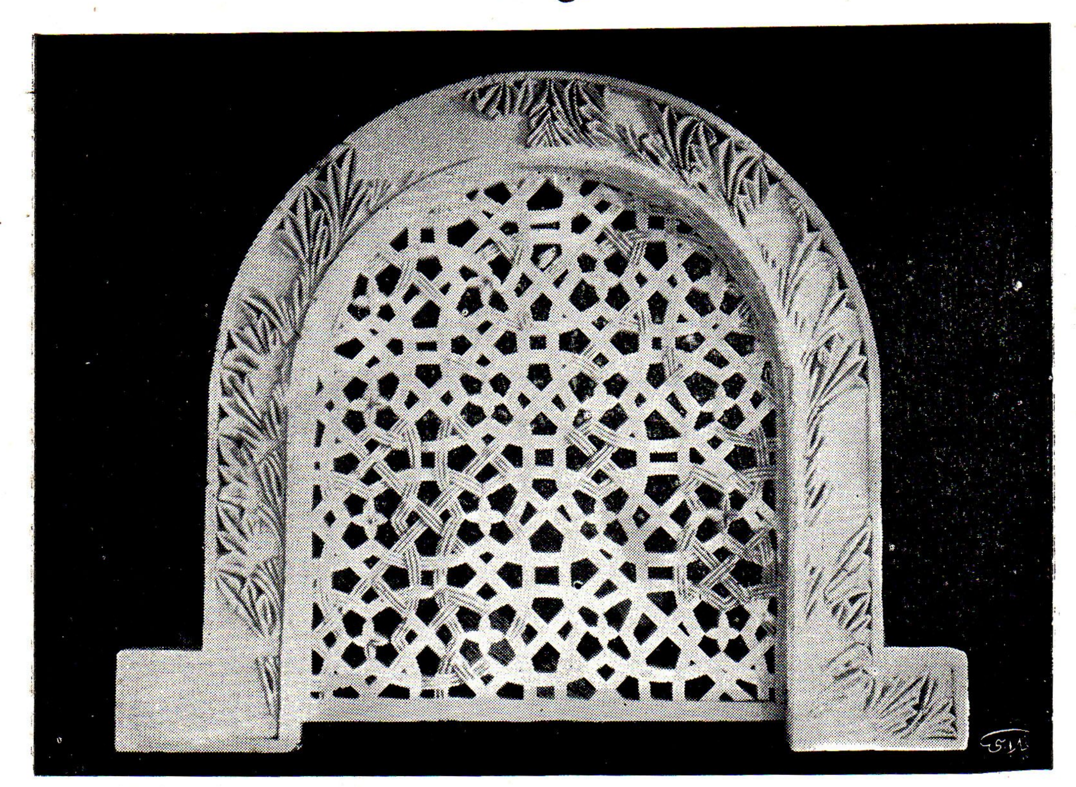
ومهما يكن فقد وجدت أجزاء الزخارف الجصية ، التي كانت تزين واجهة قصر الحير الغربي ، أمام مدخل القصر في الجهة الشرقية ، في منطقة طولها (٢٥ متراً) ، وعرضها (١٦ متراً) أمام الواجهة . ويلاحظ أنه لم يعثر في أية ناحية خارج القصر على أية قطعة منها . مما يدل على أن هذه الزخارف كانت تزين الواجهة المتقدمة أي البرجين المتوسطين الشرقيين ، وما فوق المدخل ، وتمتد باستمرار دون انقطاع . والواضح أنه لما انهارت واجهة القصر تحطمت وتفتتت

---

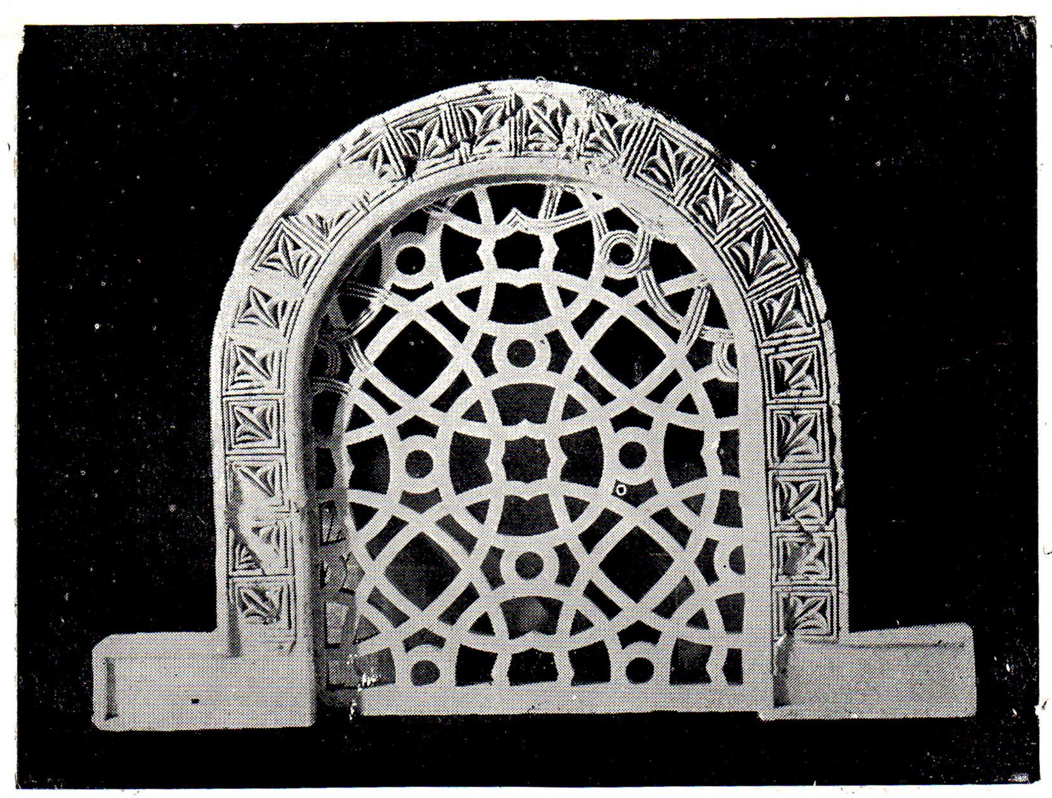
(١) السيدان فييت وهوتكور ، المصدر السابق .

(٢) انظر مقالنا : نظرات في الفن الاسلامي المذكور سابقاً .

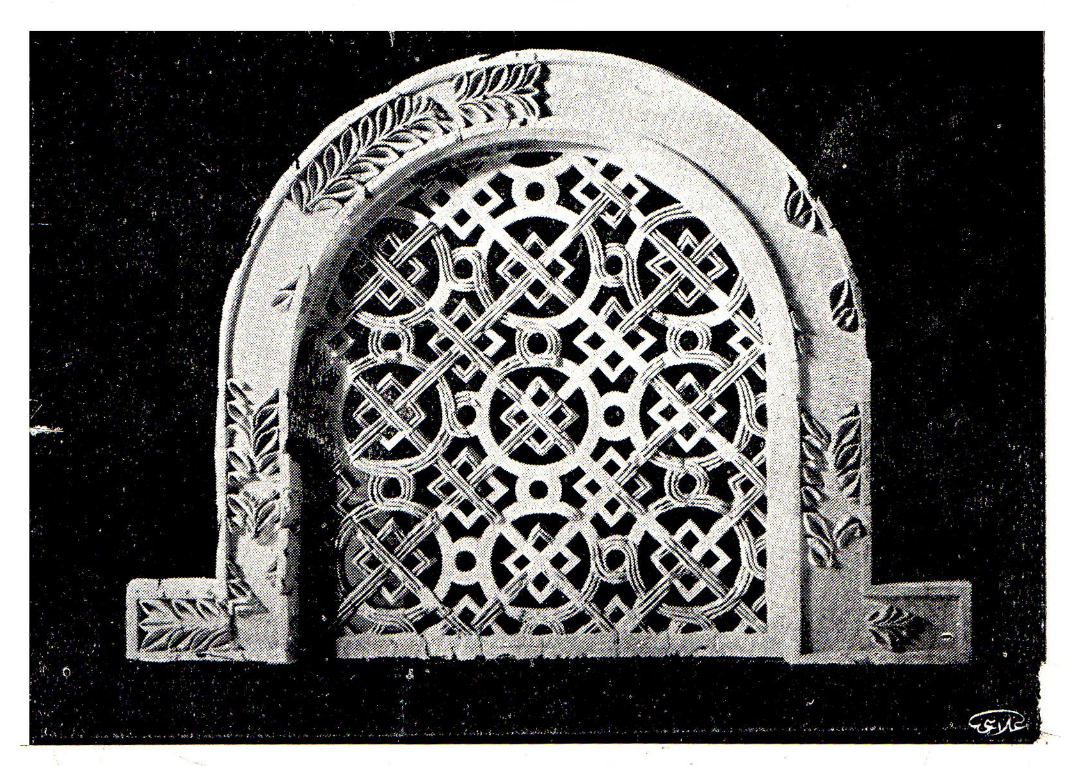
(٣) انظر مقال هنري ستيرن الذي ذكرناه سابقاً ، آرس اسلاميكا ، المجلد العاشر — الحادي عشر ص : ٨٦ .



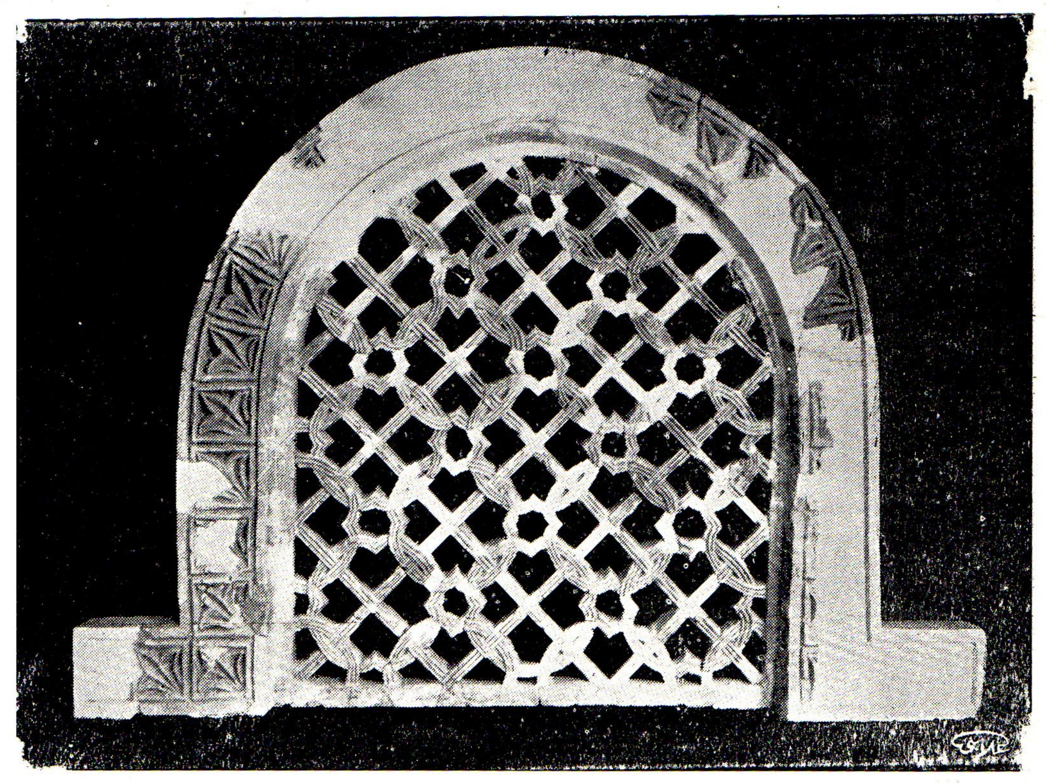
١ - النافذة ذات الرقم (٣) . وكانت تزين مدخل الحجرة (٧) المشرفة على القاعة (٦) في قصر الحير الأصلي . وهي معلقة حالياً في مكانها الذي يقابل ذلك في الجناح المعاد .



٢ - النافذة ذات الرقم (٩) . وكانت تزين مدخل الحجرة (٢) المشرفة على القاعة (٦) . وهي معروضة حالياً في المكان الذي يقابل ذلك .

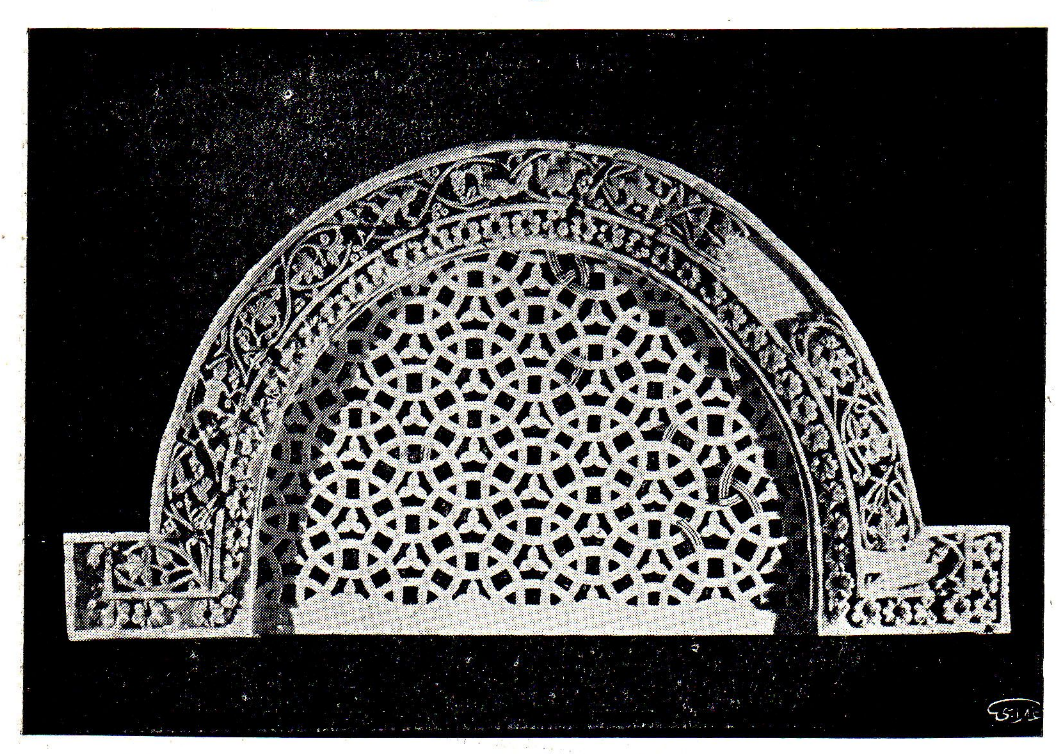


١ ـ النافذة ذات الرقم (٩١) . عثر على أجزائها في ارض القاعة (٥٥) ، وعلقت على باب الحجرة (١٤) المشرفة على القاعة (٦) .

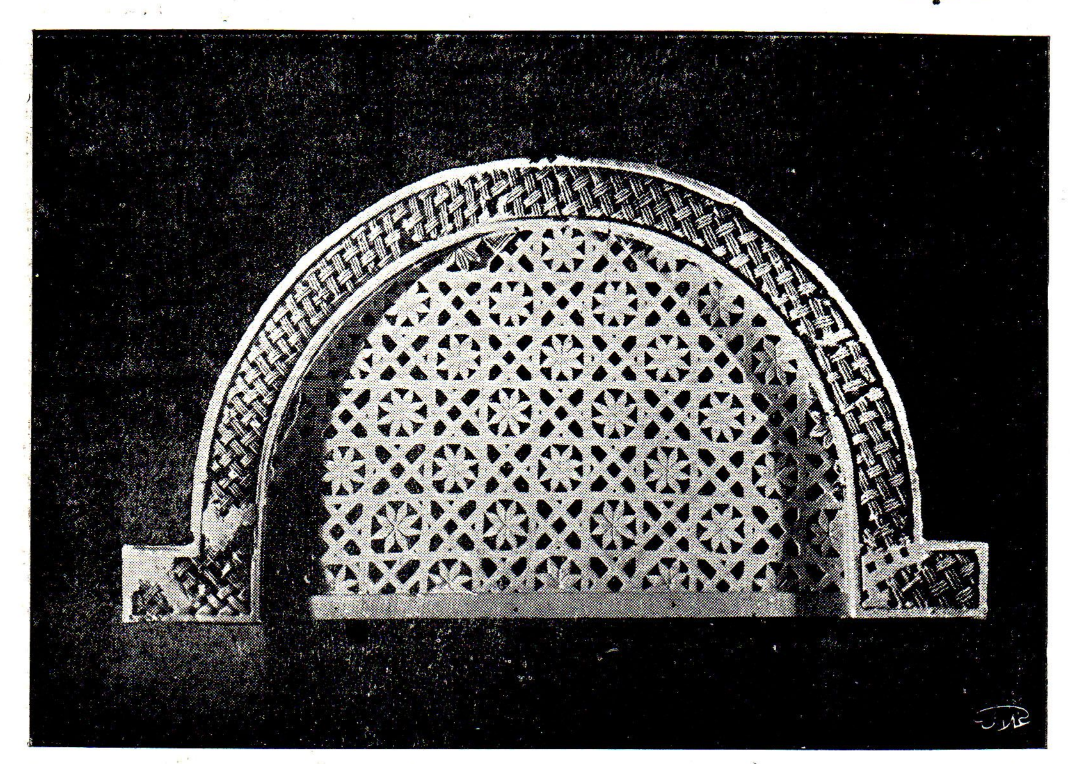


٢ ـ النافذة ذات الرقم (١٢) ، عثر على اجزائها في أرض القاعة (٦) ، وعلقت على مدخل الحجرة (٤) .

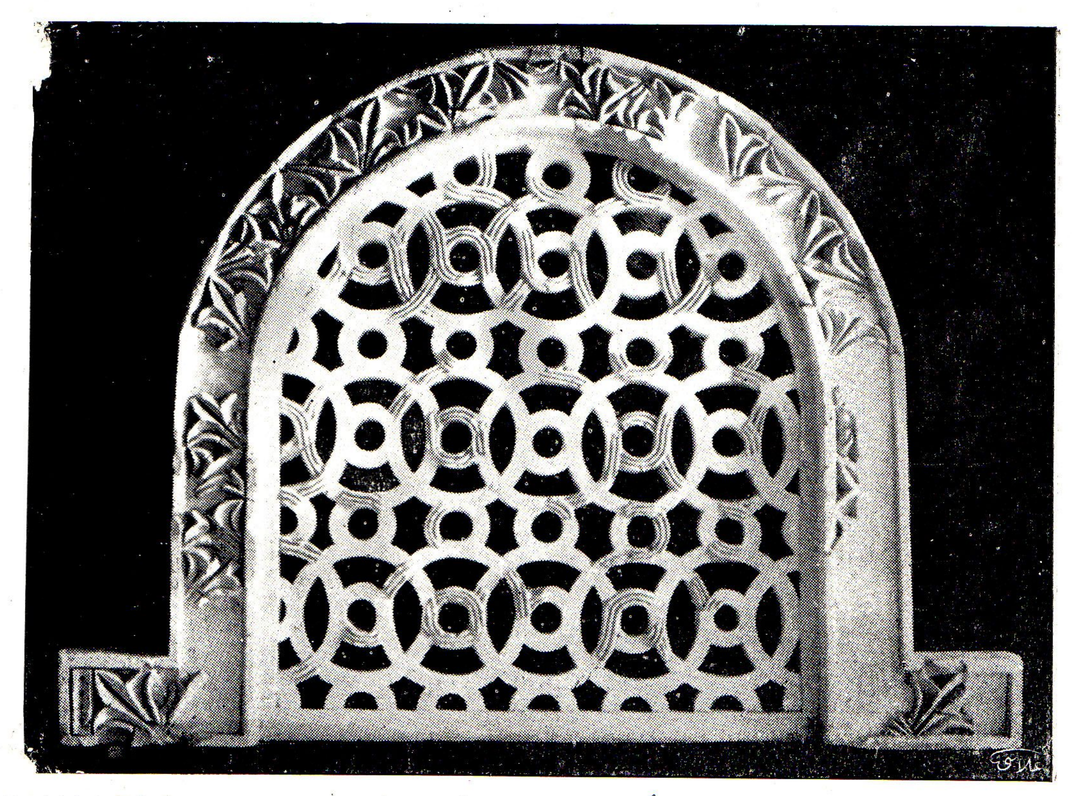
اللوح - ١٩ -



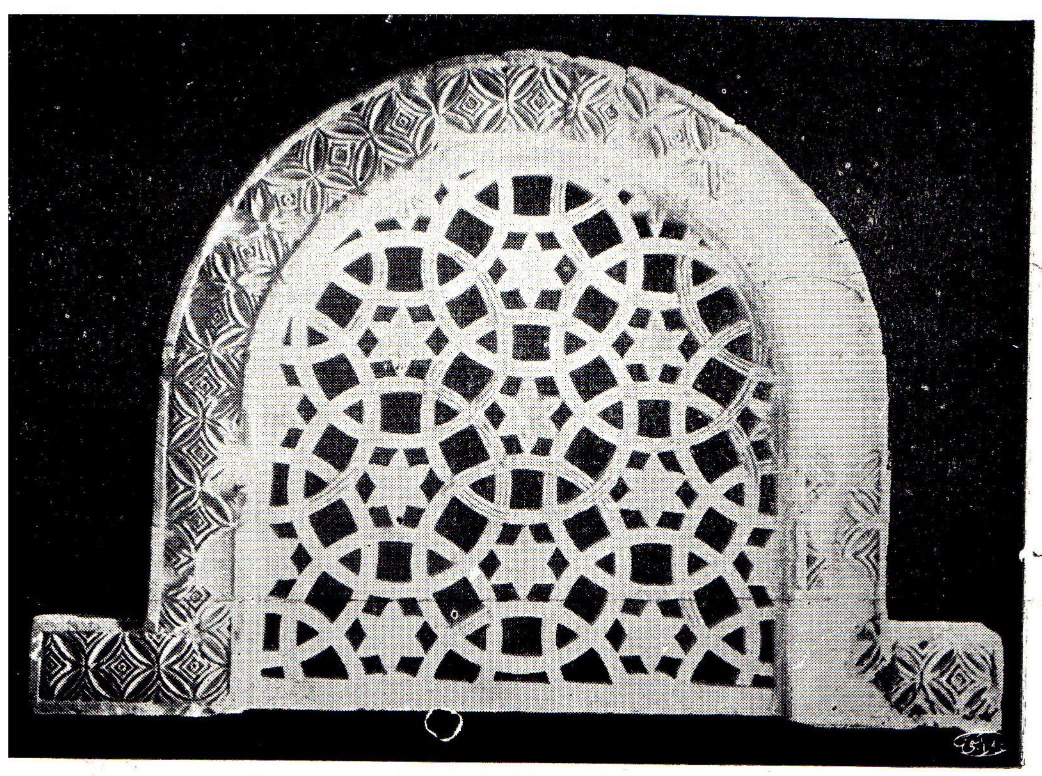
١ - النافذة ذات الرقم (٧٢) عثر على أجزائها في أرض القاعة وعلقت على باب القاعة (٦) المطل على الباحة الداخلية .



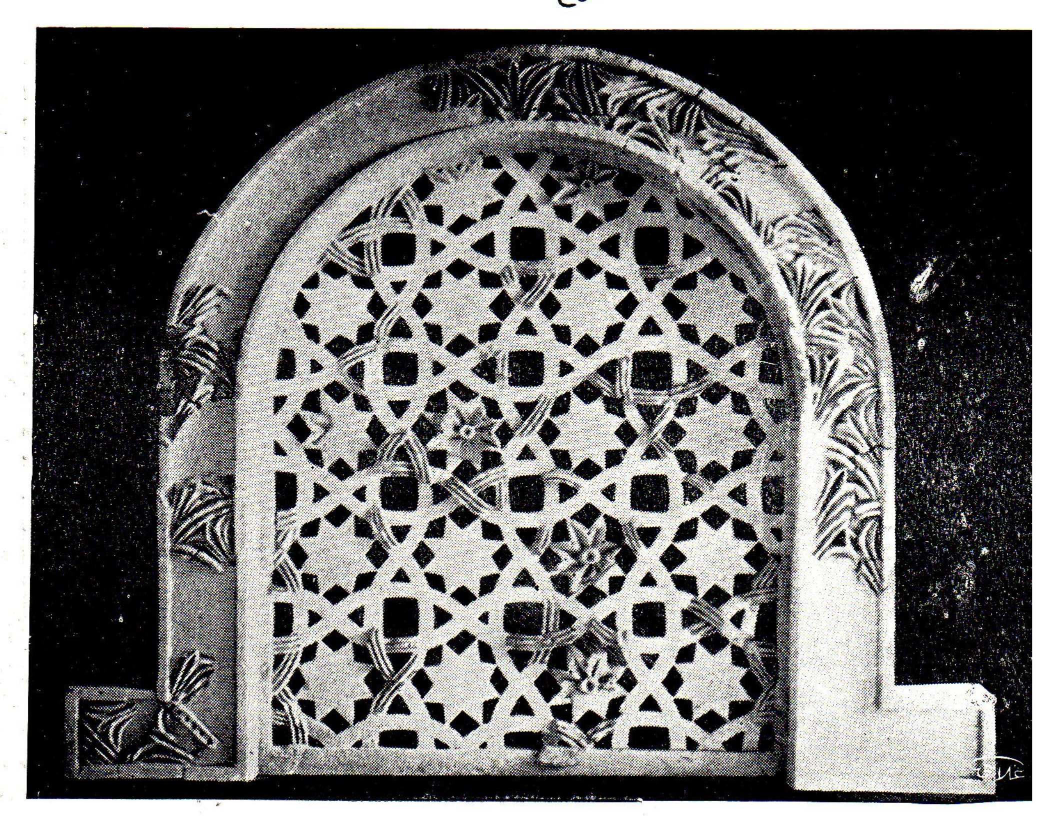
٢ - النافذة ذات الرقم (٢٢) عثر على أجزائها في مدخل القاعة (٧) . وعلقت على باب هذه القاعة المطل على الباحة الداخلية .



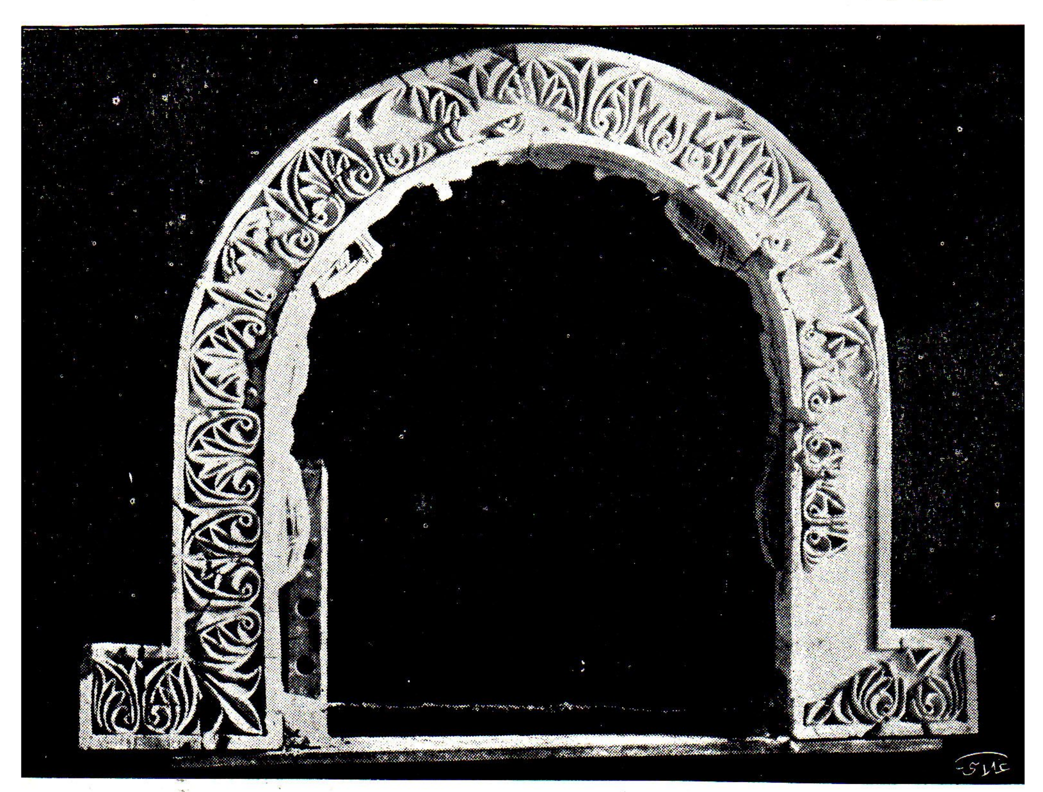
١ - النافذة ذات الرقم (٢٧) . وجدت أجزاؤها مبعثرة في أرض القاعة (٧) ، وعلقت بعد إصلاحها على مدخل الحجرة (٣) .



٢ - النافذة ذات الرقم (٢٦). وجدت اجزاؤها في أرض القاعة(٧)، وعلقت بعد تركيبها في مدخل الحجرة(٥).

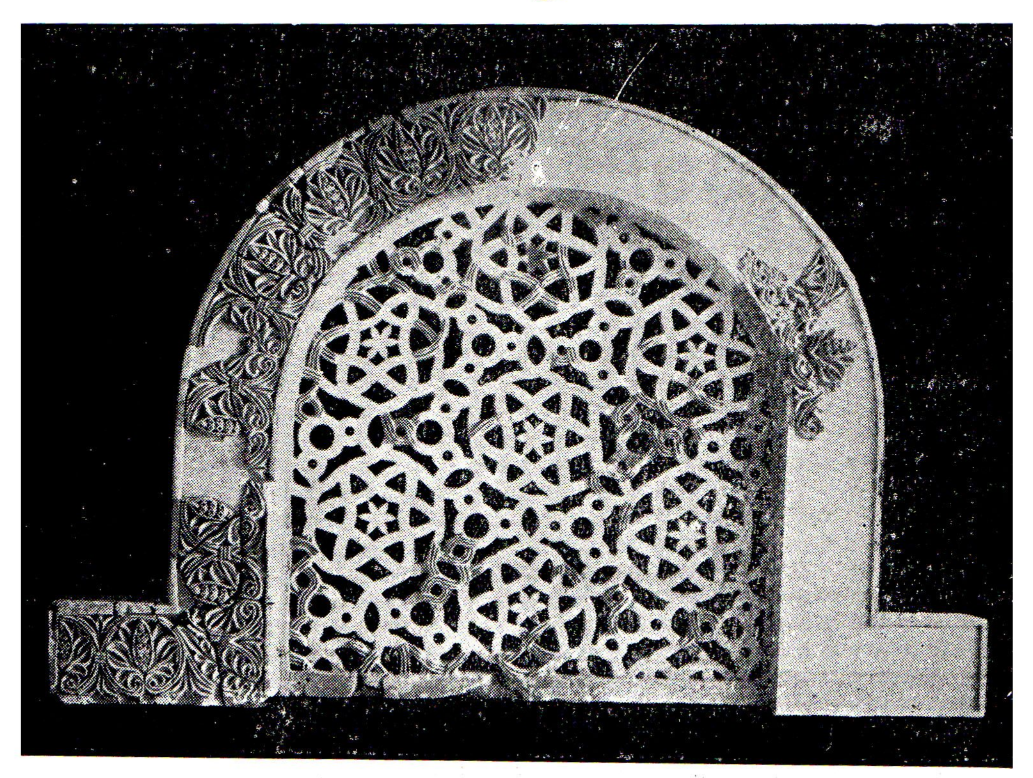


١ ـ النافذة ذات الرقم (٢٤) ، التقطت أجزاؤها من ارض القاعة (٧) ، وعلقت بعد ترميمها في مدخل الحجرة (٩) .

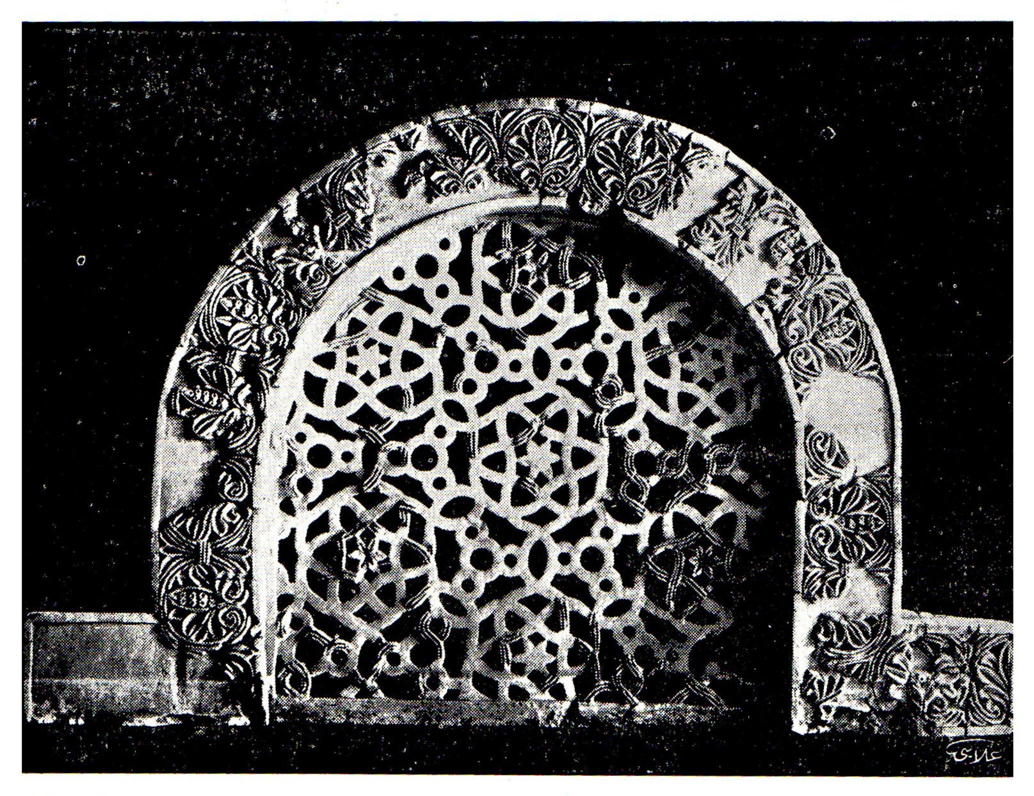


٢ ـ النافذة ذات الرقم (٢٣) . جمعت اقسامها من ارض القاعة (٧) . وعلقت بعد إصلاحها في مدخل الحجرة (١١) .

اللوح – ٢٢ –

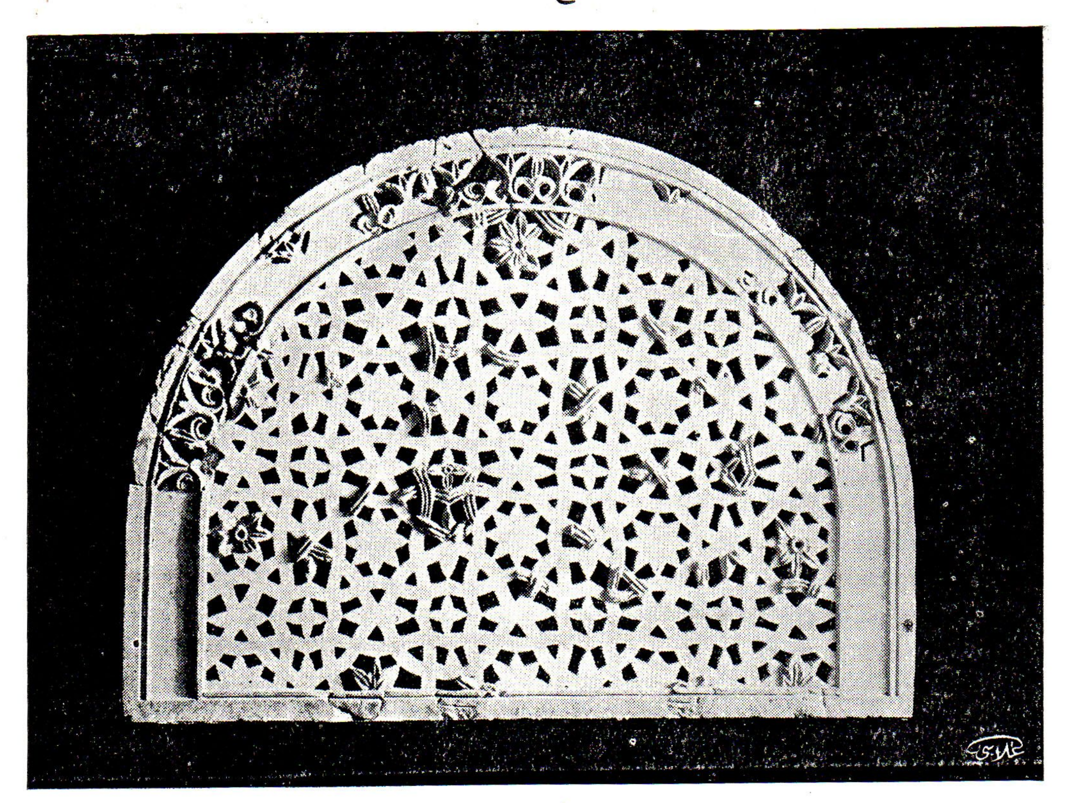


١ - النافذة ذات الرقم (٧) . وجدت أجزاؤها مبعثرة على أرض القاعة (٦) ، وعرضت على الجدار الجنوبي من الباحة .

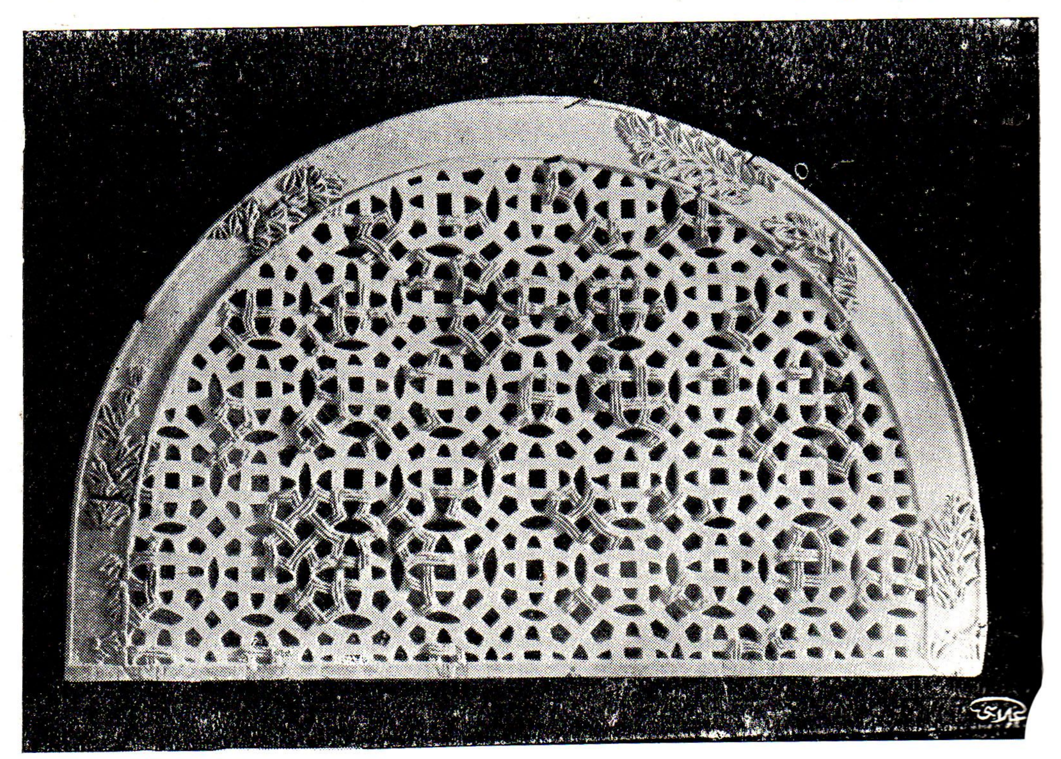


٢ ـ النافذة ذات الرقم (٨) . عثر على أجزائها في ارض القاعة (٦) ، وعلقت على الجدار الجنوبي من الباحة .

اللوح - ٢٣ -

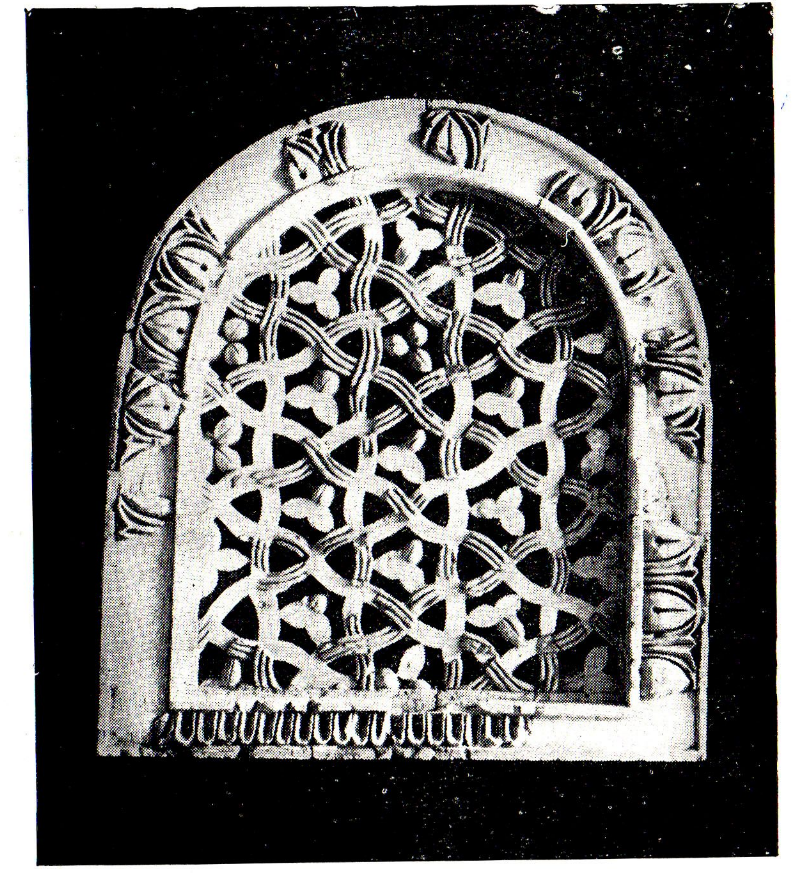


١ - النافذة ذات الرقم (١٣) . عثر على أجزائها في أرض القاعة (٦) ، وعرضت على الجدار الجنوبي من الباحة .



٢ - النافذة ذات الرقم (١٤) . عثر على أقسامها في القاعة (٦) ، وعلقت على جدار الباحة الجنوبي .

اللوح - ٢٤ -



١ - النافذة ذات الرقم (٤) . عثر على قطعها في القاعة (٦) ، وعلقت على الجدار الجنوبي من الباحة .



٢ - النافذة ذات الرقم (٥) ، عثر على أقسامها في القاعة (٦) ، وعلقت في الجدار الشمالي من الطابق العلوي .

تحت ثقل الأنقاض . ولم يكن من السهل جمعها ورسمها وإعادة تركيبها . لهذا فقد ظل هذا العمل مستمراً بحذر زائد ودقة شديدة الى آخر العام (١٩٤٤) . وزادت صعوبته بسبب تحدب سطوح البرجين الاسطوانيين . مما أوجب اعادة انشاء قطع الزخارف على ألواح مربعة أو مستطيلة مسلحة بالحديد ، لا تزيد أبعاد كل منها (١٫٥٠ م × ١٫١٠ م) ، وتؤلف سطوحها الخارجية جزءاً من تحدب البرجين . ثم جمعت هذه الألواح من الداخل بأن ربطت بأشرطة حديدية مطلية بالزئبق ، على هيكل مؤلف في كل برج من خمس دعائم كبرى تصل بينها أقواس من الاسمنت المسلح . ودعمت الأشرطة الحديدية الزئبقية بقشور القنب وطليت ، وملئت ، بالجص والاسمنت ، الفوارق بين الألواح المربعة والمستطيلة التي تركت عمداً تقديراً للتمدد والتقلص .

وصحح تركيبها ما ذهب اليه شلومبرجه بادىء الأمر في ارتفاع القصر . فقد جاء في المخطط الذي نشره أن ارتفاع البرجين (١٦٫١٠ م) ، فبلغ هذا الارتفاع بعد تركيبها (١٤٫٤٥ م) . ثم ظهر أن القوس الكبير فوق المدخل لم يكن بيضوياً ، بل مستديراً ، وأن ارتفاعات مناطق الزخرفة غير متساوية في كل من البرجين . اذ أنها تختلف اختلافات بسيطة (اللوح ٣) . وكذلك فان جمع هذه الزخارف وتركيبها وعرضها ، أعطتنا فكرة تامة وواضحة عن تتابع مواضيعها وتسلسلها . وظهر أن مواضيعها النباتية مأخوذة عن شوكات اليهود (الأكانت Acanthes) ، وسعفات النخيل (Palmettes) ، و (أزهار الزنبق Fleurs de lys) ، و (أوراق الكرم وعروقه Rinceaux et feuilles de vigne) ؛ وأن مواضيعها الهندسية تتألف من دوائر وأنصاف دوائر وأقواس ، ومضلعات رباعية وخماسية وسداسية وثمانية ونجمية وغير ذلك ، وأن مواضيعها الحية ، تتألف من تماثيل أشخاص كلية أو نصفية لرجال ونساء والحيوانات . ويدل رصفها الى جانب بعضها والتوفيق بين عناصرها على مهارة الفنانين الأمويين ، وبراعتهم الدقيقة في التأليف ، وموازينهم الحساسة في تقدير جمال الطبيعة ، والمواءمة بينه وبين جمال الفكر ، وما يبتكره من أشكال هندسية وزخرفية مختلفة .

وخلاصة القول ان واجهة قصر الحير الخارجية تؤلف صفحة من أجمل صفحات الفن العالمي في كل العصور ، وفاتحة مجيدة للفن العربى الناشيء الذي أخذ ، وما كاد يشب عن الطوق ، يخلف روائع الآثار الخالدة ويتبوأ مكانة عاليه ممتازة بين الفنون التي سبقته .

وتدل صنعتها على أن الفنانين الذين نحتوها جمعوا فيها طريقة النحت السطحي ، الذي لايتجاوز عمقه عدة سانتيمترات ، الى طريقة النحت العميق الذي يبلغ عشرات من السانتيمترات ، ثم

أضافوا إلى هاتين الطريقتين التماثيل الكبيرة ذات الشخص والشخصين والثلاثة ، في اوضاع ثابتة ومتحركة . ولم يقنعوا بجمع كل هذه التأثيرات الفنية ، بل زادوا اليها أيضاً نوعاً آخر ، وهو تأثير فن الفسيفساء الزجاجية التي كانت ألواحها تزين زاويتي القوس المدور فوق المدخل ، كما تدل على ذلك بعض المكعبات الزجاجية التي وجدت ملتصقة فيه . وتتألف هذه الواجهة كما يلي :

آ) افريز من شوكات اليهود المتتابعة والمتعرجة ، كأنها تنحني تحت هبة النسيم (١) . وفي رأس كل منها زهرة مثلثة مقلوبة الى الاسفل ويبلغ عرض هذا الافريز (٥٨ سم) . ويلاحظ أن افريز شوكات اليهود كان مستخدماً قبل قصر الحير في زخارف ستزيفون (٢) .

ب) منطقة عريضة من الزخارف التي تتألف في كل برج من ثلاثة مستطيلات شاقولية . وزخارف هذه المستطيلات متناظرة . وهي تتألف في المستطيلين الأولين اعتباراً من المدخل على الشكل الآتي :

لكل منها اطار من عناصر نباتية منتزعة من شوكات اليهود ، وسطح مقسوم بواسطة صفوف من المسدسات بينها صفوف أخرى من المعينات . وكل مسدس محاط بحبل من اللآلىء ، وفي داخله وردة مثمنة (٣) . أما المعينات فانها مشغولة بزهرات نباتية ذات تويجات تتفق مع سطوح المعينات . ثم أن كلاً من المستطيلين المتوسطين يتألف من اطار مزخرف بدوائر تتابع مع أنصاف دوائر متعاكسة . وفي كل من الدوائر وردة ذات ست تويجات وفي كل من أنصاف الدوائر المتعاكسة نصف وردة ، أما سطح كل من المستطيلين فانه مقسوم بواسطة سلسلة من صفوف الأقواس المثلثة (تسعة صفوف في مستطيل البرج الأيمن ، وثمانية في مستطيل البرج الأيسر) . واطارات هذه الأقواس المثلثة مشغولة بحبال من اللآلىء . ثم أن سطوحها تحوي عناصر من شوكات اليهود .

وأخيراً فان لكل من المستطيلين الباقيين ، وهما مستطيلا الطرفين ، اطار من عناصر شوكات اليهود ، وسطح مقسوم الى معينات بواسطة تقاطع خطوط مائلة بزوايا قائمة . واطارات هذه المعينات مؤلفة من زخارف على شكل قلوب مثقوبة في معينات مستطيل البرج الأيمن ، أو على حبال اللآلىء في معينات مستطيل البرج الأيسر . وداخل كل هذه المعينات مشغول اما بعناصر من شوكات اليهود ، أو بوردات مختلفة .

ويبلغ عرض هذه المنطقة (٣٫٤٠ م) .

---

(١) كما يقول فيها شلوبرجه ، المصدر السابق . ص : ٣٢٦

(٣) انظر الوثائق المصورة : التي أوردت في كتاب :
A. U. Pope : A Survoy of Persion art. Vol. IV. P. 171 ,

(٣) يشبه هذا النوع من الزخارف زخارف سقف في مذبح الاله جوبيتر في بعلبك .

ح) ويعلو منطقة المستطيلات منطقة أخرى من الزخارف ، وعرضها (٠،٧٦٥ م) . وتتألف من ثلاثة أقسام .

١ — طنف من التويجات ، وفوقه صف من المحاريب الصغيرة (الغودرون) .

٢ — طنف ثان متألف من وردات وشوكات يهود ، ويعلوه حبل من اللآلىء .

٣ — صف من الزخارف ، يصعب رؤيته من أسفل البرجين ، وهو مزين بأغصان نباتية مختلفة .

د) منطقة عريضة من الزخارف الهندسية ، تتعاقب فيها المستطيلات مع المربعات . ويوجد في كل مستطيل ، معين محاط بصف من اللآلىء ، وفي وسطه وردة محاطة بحبل آخر من اللآلىء . أما بقية سطوح المعين والمستطيل الذي يحيط به ، فهي مشغولة بأوراق نباتية محورة عن شوكات اليهود . ثم أن كل مربع محاط بحدودٍ بارزة ، وسطحه مملوء بمربعات متداخلة ، وفي وسطها دوائر .

ويبلغ عرض هذه المنطقة نحو (١،٣٥ م) . والتفاوت بين ارتفاع هذه المنطقة في كل من البرجين محسوس ويزيد على (٧ سم) .

هـ) إفريز ضيق من شوكات اليهود المتتابعة ، مع وردات أفقية ، ويبلغ عرضه (٦٠ سم) .

و) وفوق هذا الافريز منطقة عريضة (١،٢٩ م) مزينة بثماني سويريات في كل برج . وجذع كل سويرية مزين ، إما بزخارف هندسية على شكل اجتماع دوائر أو أنصاف دوائر ، متداخلة ومتلاصقة ومتركبة فوق بعضها ، وإما مزين بأوراق شوك اليهود أو أوراق الزنبق . ويعلو كل سويريتين محراب ، يقسم سطحه المقعر بواسطة خطوط متفرعة عن المركز شأن كثير من المحاريب التي تشاهد في الأبنية التدمرية والرومانية ، أو جبهة مثلثة سطحها مملوء بأوراق شوك اليهود . ويوجد في الفراغات بين المحاريب والجبهات المثلثة تماثيل نصفية صغيرة . ويظهر أنه كان يوجد تحت المحاريب ، بين كل سويريتين تمثال نصفي . كما أنه كان يوجد تحت كل جبهة زخارف نباتية . وقد وجدت قطعة جصية كبيرة تمثل شجرة ، فجعلت في أول هذه المنطقة من البرج الأيمن .

ز) صف من الزخارف المعروفة باسم (الزخارف الاغريقية Grecques)[1] . وهي خطوط منكسرة ، متصلة ببعضها وتؤلف زوايا قائمة . وفي داخل كل منها شوكة يهود أو زهرة . ويبلغ عرض هذا الصف (٢٢ سم) .

ح) منطقة من الوردات الكبيرة التي يبلغ عددها سبعة في كل برج . وتتألف كل وردة

(١) هذا النوع من الزخارف موجود في آثار ستريفون . انظر المصدر السابق .

من دوائر ذات مركز واحد ومتداخلة . وفي وسطها إما زهرة محاطة بحبل من اللآلىء او أوراق مثلثة (زنبقات ؟) . ويبلغ عرض هذه المنطقة (٤٥ سم) .

ط) طنف متألف من ثلاثة صفوف من الزخارف المختلفة . أولها مزين بأوراق نباتية متتابعة بصورة أفقية ، بعد أن يعلو بعضها بعضاً (Feuilles imbriquées) [1] ؛ وثانيها صف من المحاريب الصغيرة (الغودرون) ؛ وثالثها صف من الزخارف البيضوية [Oves] . ويبلغ عرض هذا الطنف [٣٤ سم] .

ي) طبقة المسننات [Merlons] . وعددها ثلاثة ونصفان في كل برج . ويحوي كل منها سبعة أسنان . وتحاط سطوحها الخارجية بإطارات من اللآلىء ، وتزين هذه السطوح بشوكات اليهود وحلزونات وزخارف نباتية أخرى ، في طرفي الشق المستطيل الممتد على طول كل مسنن .

أما زخارف القسم المتوسط من هذه الواجهة الخارجية ، الواقع فوق باب المدخل ، فإن مناطقها مع شيء من الاختلاف في مواضيعها عن زخارف البرجين ، تساير المناطق التي جرى وصفها ، مما يدل على وحدة في إلهام الفنانين الذين صنعوها ، وتشابه في الأساليب التي اتبعت في نحتها جميعاً . غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الفنانين لم ينشئوها دفعة واحدة ، وأنهم كانوا يضيفون اليها أجزاء جديدة بعد صنعهم لبعضها . وذلك تصحيحاً لمشروعهم الأول ، وتجميلاً لعناصره المختلفة . وهي تتألف من المناطق الآتية :

آ) منطقة القوس الواقعة فوق عتبة الباب مباشرة : وقد اتضح أن هذا القوس مدور ، وليس بيضوياً كما ظن في بادىء الأمر . وليس يعلم على وجه التأكيد ما هي الزخارف التي كانت تملىء سطحه الداخلي ، وسطوحه الجانبية الخارجية . غير أنه عثر على بعض المربعات من الفسيفساء الزجاجية في طرفيه الجانبيين ، مما يدل على أن بعض الزخارف من هذه الفسيفساء كانت تزين السطوح الجانبية (وربما السطح الداخلي) . ولعلها كانت تمثل اشجاراً أو مشاهد صيد أو حيوانات أو أشخاصاً . ويلاحظ أن التمثال الذي أطلق عليه اسم تمثال الخليفة (هشام ابن عبد الملك ؟) وجد في هذه الأرجاء . ولم يعرف أين مكانه في الجبهة . وقد اتجه الرأي في بادىء الأمر إلى امكان وضعه تحت هذا القوس . بيد أنه وجد أنه متأثر جداً من الأمطار مما يستدعي وجوده في مكان أكثر تعرضاً للعوامل الجوية تحت أحد القوسين المدورين الصغيرين قبل منطقة البرج النهائية ، أو فوقها . غير أن دراسة هذا التمثال الذي عرضناه موقتاً في الصالون العلوي ، تدل على أنه صنع ليكون شكلاً مركزياً ، إذ أن طرفيه

---

(١) وهذا النوع موجود أيضا في آثار ستزيفون .

متناظران تماماً ، كما أن تفاصيل أعضائه وألبسته وحليه واضحة كل الوضوح . مما يدل على أنه صنع ليشاهد من قريب لا من بعيد . وكذلك فإن ارتفاعه الكلي (١،٥٦ م) . ويتناسب هذا الارتفاع مع القوس الذي يبلغ ارتفاعه اعتباراً عن عتبة الباب الى أعلى فتحته (٢،١٠ م) . وإذا كان مكان هذا التمثال هناك لأمكن القول إن هذا الجزء من زخارف قصر الحير الغربي كان أول مثال لجبهات الكنائس المسيحية الغربية (Tympans) التي يتوسط فيها تمثال المسيح بقية التماثيل في موضوعي المسيح الجليل ، والصعود إلى السماء [1] .

ومهما يكن فإن زخارف إطار القوس تتألف من أوراق وأزهار نباتية متتابعة ، وفوقها صفان أعلى سطحاً منها . الأول منهما محاريبه صغيرة متتابعة (غودرون) ، والثاني زهرات بأربع تويجات تتتابع مع شوكات يهود صغيرة مربعة .

ب) وفوق القوس المدور صف من الوردات يكمل صف الوردات الواقعة بعد منطقة المستطيلات الكبيرة في البرجين . وهي تشبهها تماماً ، ويبلغ عددها هنا اثنتين وعشرين ، كما أن عرضها (٢٥ سم) .

حـ) صف من المحاريب الصغيرة يكمل صف محاريب البرجين .

د) منطقة من الصناديق الصغيرة (Caissons) تشبه ما يوجد من زخارف في سقف معبد باخوس من بعلبك . ويلاحظ أنه يوجد بين كل صندوقين وردة ذات تويجات منحونة نحتاً بديعاً . وهذه الوردات غير متشابهة تماماً ، وتوجد بينها اختلافات لطيفة جداً . وفوق هذه المنطقة حبل من اللآلىء .

هـ) منطقة من السويريات ذات الجذوع الملساء الخالية من الزخارف ، وعليها التيجان الكورنثية الضخمة وتعلو هذه السويريات محاريب كبيرة وصغيرة ، وتتعاقب على التوالي . بيد أن أقطار المحاريب الكبيرة والصغيرة ليست واحدة تماماً . وتتزين سطوح أقواسها الخارجية باطارات مؤلفة من حبال من اللآلىء وداخلها أوراق نباتية وورودات ذات تويجات متعددة . ويعتقد أنه كانت توجد تماثيل انسانية تحت هذه المحاريب . ولم يعثر ويا للأسف على شيء منها . ومهما يكن فقد أضيفت منطقة المحاريب هذه متأخرة بعد إنشاء زخارف البرجين ، لأنها تغطي بطرفيها بعض هذه الزخارف .

وتنتهي هذه المنطقة في أعلاها بصف من زخارف المحاريب الصغيرة (غودرون) .

---

(١) إن وضع تمثال الخليفة يشبه وضع صورة الملك الجالس الذي يشاهد في صفحة من عهد خسرو الأول (٥٣١ — ٥٩) ، محفورة بنقوش مختلفة . وهي محفوظة في متحف الارميتاج . انظر (بوب : المصدر السابق ، الجزء الرابع ، ص ٢٣٩) .

و) صف من أوراق الزنبق يقابل صف الزخارف المماثلة على البرجين .

ز) منطقة عريضة أخرى من السويريات تحاذي منطقة السويريات العلوية في البرجين . ويوجد منها في الوسط أربع سويريات لها أخاديد طولانية دقيقة شبيهة بأخاديد الأعمدة الدورية ويعلو كل منها تاج كورنثي . ثم يوجد عمود في كل نهاية من نهايتي هذه المنطقة . وهو مزين بأوراق الزنبق . وفوق السويريات الأربع الوسطى قوسان مدوران مزينان أيضاً بأوراق الزنبق . ويعتقد أنهما كانا قوسي نافذتين لاضاءة قاعة من قاعات الطابق العلوي . وبينهما ثلاثة تماثيل نصفية لنساء عاريات . وفي جانب كل قوس جبهة مثلثة مزينة بزخارف على شكل أخاديد الصدف وذات إطار من زهرات الزنبق .

ح) صف من الزخارف المعروفة باسم الزخارف الاغريقية . ويحاذي الصف الذي يماثله في البرجين .

ط) منطقة عريضة يعلوها قوسان مدوران متوسطان ومزينان بثلاثة صفوف من الأوراق النباتية التي يعلو بعضها بعضاً feuilles imbriquées والمحاريب الصغيرة ، والبيوض . ويشاهد في أسفل هذه المنطقة قطع منحوتة لثلاثة تماثيل مشوهة تظهر فيها ثلاثة خراف ، اثنان متقابلان في الجهة اليمنى ، وواحد متجه إلى اليسار في الجهة اليسرى . ويرى بقربها آثار لحيوانات أخرى يميز بينها الفهود .

وفي طرف القوس العلوي الأيمن تمثالان ، يشاهد في الجزء الباقي منهما ، رجل مضطجع ، وتجلس إلى جانبه امرأة في وضع يشبه أوضاع التماثيل التدمرية الجنازية (١) .

ي) صف من أنصاف البيوض ، يمتد بصورة أفقية مستقيمة ، ويحاذي القسم العلوي من طبقة المسننات في البرجين .

س) منطقة أخيرة كانت مملوءة بتماثيل حيوانية . ولم يبق منها إلا قطعة تمثل فهداً يفترس غزالاً .

* * *

٢٦ — الواجهة الداخلية (٢) :

ولا تقل أهمية الواجهة الداخلية للزخارف الجصية المحفورة في قصر الحير الغربي ، عن

(١) ولا يستغرب إن كان الفنانون الأمويون قد رأوا هذه التماثيل الجنازية التدمرية . اذ لا يخفى أن تدمر قريبة من موقع قصر الحير الغربي . وهذا ما يدل على أن الفن التدمري السوري كان أحد الينابيع التي استقى منها الفن العربي الأموي . انظر المقال المنشور في هذا العدد في الصحيفة ٣٢ من القسم الاجنبي عن طعام الموتى لدى التدمريين .

(٢) لم يسبق أن نشر شيء عن هذه الواجهة .

اهمية واجهته الخارجية ، وإن لم تكن على مثل غناها وكثرة عناصرها ، وتنوع مواضيعها . وقد جمعت أجزاؤها بين الانقاض في رواق القصر الشرقي ، مما حدا إلى الظن ، أنها كانت تستند على جدار الطابق العلوي بعد الرواق . وهناك عملنا على عرضها . ولم نستطع معرفة جميع عناصرها لقلة ما جمع من هذه العناصر بالنسبة إلى ما جمع من زخارف الواجهة الخارجية من جهة . ولعدم توفر أي دليل على وضعها القديم ، واتصال أجزائها ببعضها من جهة أخرى . ومن هذا فإن تركيبها كان صعباً جداً ، واحتاج لتجارب عملية ونظرية مطولة ، قبل أن تأخذ الشكل الذي صار لها الآن (اللوح ٦ ، الصورة ٢) . وقد عملنا لإعطائها هذا الشكل لأن ننشيء هيكلاً مستطيلاً من الاسمنت المسلح ، طوله (١٦،٧٠ م) ، وعرضه (٢،٧٥ م) . وتتقاطع عوارضه الطولانية والعرضانية على شكل مربعات ومستطيلات صغيرة على طول الرواق بين بابي البهو العلوي . وأقمنا بعد ذلك تدريجياً ، على هذا الهيكل أقسامها المختلفة (انظر مخططها في اللوح ٨) .

وتختص هذه الواجهة أن زخارفها تمتد بصورة أفقية ، على عكس زخارف الواجهة الخارجية التي رأينا أنها تمتد بصورة شاقولية ، وأن التأليف بين عناصرها بسيط غير معقد كما كان الأمر في الأولى . وهي تتألف بصورة عامة حسب ما انتهينا إليه ، من ست نوافذ جصية ، اثنتان مزدوجتان منها في الطرف اليسرى ، واثنتان مزدوجتان في الوسط ، واثنتان مزدوجتان في طرف جهتها اليمنى . وما بين نافذتي اليمين ونافذتي الوسط مشاهد إنسانية ، وكذلك بين نافذتي اليسار ونافذتي الوسط . وأخيراً فإنه يوجد لهذه الواجهة افريز من الزخارف يحدها من الأسفل ، وإفريز أو اثنان يحدانها من الأعلى [1] . ويلاحظ أن النافذتين (١) و (٦) متشابهتان تماماً ، وكذلك النافذتان (٢ و ٥) ، والنافذتان (٣ و ٤) .

وإليكم وصف عناصر هذه الواجهة بشيء من التفصيل :

آ) يتألف الإفريز السفلي من صف من الأوراق المتتابعة المحورة عن سعفات النخيل . وتميل هذه الأوراق في القسم الأيسر نحو اليمين ، وفي القسم الأيمن نحو اليسار بحيث أنها تتقابل في وسط الواجهة . ويأتي بعد هذا الصف حبل من اللآليء ، ثم منطقة من أوراق نباتية عريضة ، فيها ما يشبه سعفات النخيل ، وأزهار في مراكزها بيوض مقلوبة إلى الأسفل . ويفصل بين هذه الصفوف حزوز مستقيمة بارزة Listels . ويبلغ عرضه (٠،٤٧ م) .

---

(١) ويظن أنها كانت تحوي إلى هذه العناصر التي ذكرناها بعض الأقواس تحت النافذتين اليمينيتين ، وتحت النافذتين اليساريتين . ولم نتمكن من إعادتها لصعوبات فنية مختلفة .

ب) يتألف الافريز العلوي من أربعة صفوف من الزخارف ، مفصولة عن بعضها بخطوط مستقيمة . وتتتابع هذه الصفوف على الترتيب الآتي :

١ — صف من المحاريب الصغيرة المشطورة الى شطرين .

٢ — صف من البيوض .

٣ — سبحة من الزيتونات المفردة المفصولة عن بعضها بزيتونات مزدوجة ومستعرضة .

٤ — صف من الأسنان الصغيرة Denticules .

ويبلغ عرض هذا الافريز (٠٫٣٥ م) .

ح) وتأتي النافذتان (١ و ٦) الواقعتين في نهايتي الواجهة بعد الافريز السفلي . ويحد كلا منهما سويريتان مرتكزتان على قاعدتين محززتين Moulurés . ويزين جذع كل سويرية صفان من أوراق النخيل التي تتقابل رؤوسها في الوسط بصورة متناظرة . ولها تاج كورنثي متألف من عنق متحزز ، وعدة شوكات يهود متناظرة . وفوقهما حلزونتان في وسطها زهرة زنبق مقلوبة إلى الأسفل (اللوح ٦ ، الصورة ٢) .

وفوق كل نافذة قوس ذو ثلاثة أفصاص ، يعلو محراباً على شكل الصدفة . وتتألف زخارف هذا القوس من صف من البيوض وصف من أزهار الزنبق .

ويبلغ طول هاتين النافذتين (١٫٩٧ م) .

د) ثم إن النافذتين (٢ و ٥) المتناظرتين بعد النافذتين (١ و ٦) تتجاوزان بحدودهما على صفوف الافريز السفلي . حتى أنه يظن أن صف أوراق النخيل المائلة كان يرتسم على طرفيهما السفليين ، دون وساطة حبل اللآلىء . أما منطقة الأوراق العريضة فانها تمتد على إطار النافذتين العريض بين خطين بارزين وحول عصب بارز ذي أزرار في الوسط . وأخيراً فان زخارف القسم المتوسط من هاتين النافذتين تتألف من ثلاثة أشكال نجمية سداسية تقع فوق بعضها في الوسط ، ونصفي شكلين نجميين آخرين من هذه الأشكال في كل طرف من الأطراف . ثم يتصل كل ذلك بواسطة أشرطة تلتف وتتداخل ببعضها حول هذه الأشكال ، محدثة تموجات سداسية جميلة (اللوح ١٦ ، الصورة ١) .

ويبلغ طول كل من هاتين النافذتين (٢٫٢٨ م) .

ا) وأخيراً فان النافذتين (٣ و ٤) الواقعتين في وسط هذه الواجهة بصورة متناظرة ، متشابهتان ، وتمثلان مواضيع واحدة في اطاريهما وقسميهما المتوسطين . ويبلغ ارتفاع كل منهما (٢٫٥ م) . وتختصان أن وضعهما من الواجهة كوضعي النافذتين المتقدمتين ، أي أن جزأيهما

السفليين يتجاوزان صف الإفريز السفلي . وتتألف زخارف إطاريهما من سلسلة من الدوائر المتتابعة . وفي كل من هذه الدوائر وردة ذات تويجات متعددة . وما تبقى من سطح الاطارين مشغول ببعض الأوراق والعناصر النباتية . أما القسم المتوسط في كل منهما فيتألف خاصة من أشرطة عريضة متشابكة ومتقاطعة فيما بينها ، محدثة خاصة دوائر مقسمة بأقواس محيطية إلى ثمانية أجزاء .

* * *

هذا ما يتعلق بالزخارف النباتية والهندسية في هذه الواجهة . وننتقل الآن إلى بعض التماثيل الانسانية والحيوانية التي كانت معروضة بين النوافذ المتقدمة . وعلى الرغم من كل ما بذلناه من الجهود ، فإننا لم نتمكن من إنشاء مشاهد تامة منها والتأليف بين عناصرها التي التقطت من الأنقاض . لهذا فإننا اكتفينا بتعليق بعضها بين النوافذ . وهي التي استدللنا على مواضعها ببعض الدلائل . وتركنا بعضها الآخر في المستودع ، انتظاراً للقيام بدراسات وافية وواسعة عن امكنتها . وإليكم وصف كل هذه العناصر التي تختص أنها ذات أبعاد ونسب كبيرة تزيد عن الأبعاد والنسب الطبيعية ، وأنها منحوتة نحتاً عميقاً جداً يزيد على (٢٠ سم) أحياناً ، وأن ظهورها ملساء لتسند على جدار الواجهة :

آ) يوجد في طرف النافذة (٥) الأيمن ، تمثال فارس يشاهد من طرفه الجانبي ، وهو يتجه إلى اليمين . ولم يبق منه في القطع التي جمعت إلا نصفه الأسفل الملتف بمعطف فضفاض ما تزال عليه آثار للون أزرق بنفسجي تتخلله بعض البقعات الحمراء . وإلى جانب الفارس جعبة السهام ، وعليها نفس اللون وشيء من آثار لون أخضر (اللوح ٩ ، الصورة ١) . ويبلغ ارتفاع الحصان (١،٦٦ م) .

ولم يفقد من الحصان إلا رأسه . وهو في وضعه العام يشبه الحصان الأسود في الصورة الجدارية الملونة التي تقدم ذكرها [١] . وعليه آثار لون أسود — أزرق . غير أن حركة هذا الحصان أقل اندفاعاً من حركة الحصان المصور [٢] . مما جعل معطف الفارس يلتف حول ساقه ولا يتطاير شأنه في فارس اللوح الجداري المصور . وفي عنق هذا الحصان هلال صغير يتدلى بسلسال يشبه ما يرى في عنق الحصان الأول .

ب) تمثال رجل جالس بين النافذتين (٢ و ٣) على عرش قائمتاه محززتان ، وواضع رجليه

---

(١) انظر الصحيفة ٣٢ (اللوح ١٤ ، الصورة ١) .

(٢) ولعل ذلك من مقتضيات فن النحت ، وقصوره لأسباب مادية ، عن مجاراة فن التصوير في التقاط الحركات الصعبة وتمثيلها .

على كرسي صغير واطىء ، له شكل بناء بواجهة مؤلفة من رواق محمول على سبعة أقواس ، ويستند كل منها على زوج من الأعمدة . ويوجد في كل جانب من هذه الواجهة قوسان . وعلى الأقواس آثار لون أخضر . كما أن موطىء قدم الرجل ملون باللون الأزرق .

ولم يبق من هذا الرجل إلا نصفه السفلي (اللوح ٩ ، الصورة ٢) الذي يظهر ضمن رداء ، في ثنياته المحدبة آثار لون أخضر . وتحت الرداء ثوب أحمر ينحدر حتى القدمين . وأصابع القدمين ظاهرة . وهذان القدمان منتعلان خفاً مزركشاً بزخارف متموجة على سطح القدمين العلوي . وعلى الخف آثار لون أحمر . ويبلغ ارتفاع ما تبقى من هذا التمثال (١٫٠٤ م) .

ج) تمثال نسر باسط جناحيه وشاغل المسافة المثلثة العلوية بين النافذتين (٣ و ٤) من هذه الواجهة . ولم يبق منه إلا الجناحان المبسوطان بأرياشها المنظمة أفقياً ، وذنبه المنظم على ثلاثة صفوف شاقولية من الريش . وأكبر الظن أن هذا النسر مستوحى من النسور الرومانية الجنازية وغيرها ، التي وجد كثير منها في سورية [1] .

أما بقايا التماثيل التي لم نتمكن من إيجاد أماكن مناسبة لها في الواجهة الداخلية فهي :

د) تمثال امرأة في وضع متحرك ، وكأنها تقدم ساقها اليمنى التي بقي القسم العلوي منها وتؤخر ساقها اليسرى المفقودة . وهي لابسة ثوباً شفافاً ملتصقا على جسمها الممتلىء ، فتظهر أشكاله المكتنزة ، وترتسم ثنياته بتموجات خفيفة متناظرة على ثديها وجذعها ، وتموجات مائلة على بطنها . ويشده نطاق له طرفان معقودان في سرتها · وكتفاها عاريان . وفي النصف العلوي من ذراعها الأيسر إسوار غليظ له فص مستدير ، وفي أذنيها قرط مستدير تتدلى منه حبة كروية صغيرة ، أمام ضفائر شعرها المجدولة . ووجهها مشوه ، ولا يدل شيء على ملامحه السابقة (اللوح ١٠ ، الصورة ٢) . وهذا التمثال يشبه التماثيل المعروفة في الفن الاغريقي — الروماني باسم تماثيل (أتا لانت) ، أو تماثيل ربات الظفر الطائرة [2] . ويبلغ طول ما تبقى من هذا التمثال (١٫٣٥ م) ، كما يبلغ عمق النحت فيه (١٦ سم) .

هـ) تمثال لامرأة عارية الصدر ، ورأسها مفقود (اللوح ١٠ الصورة ١) ، وهو مشوه جداً . ويلف قسمه الأسفل ثوب ترتسم ثنياته المتموجة على ساقيها . ولها في أعلى ذراعها

---

(١) للاطلاع على بعض هذه الصور انظر في كتابي :
M. Dunand, Catalogue du Musée de Soueïda, Paris, 1934, p. p. 18, 22, 28, 33, 33.
Sélim et Andrée Abdul - Hak, Catalogue illustré du Département des Antiquités greco - romaines au Musée de Damas, 1951, p. 80.

(٢) في المصدرين المذكورين سابقاً أمثلة كثيرة ومختلفة عن هذا النوع الأخير من التماثيل .

إسوار يشبه الإسوار الذي وصفناه في التمثال المتقدم . وتحمل اليد اليمنى كيساً مخروطي الشكل . ويبلغ طول ما تبقى من هذا التمثال (١٫٣٠ م) ، وعمق النحت فيه (٢٠ سم) .

و) جذع تمثال لامرأة عارية الصدر ، وراسها مفقود (اللوح ١١ ، الصورة ١) ، وفي ذراعها الأيمن إسوار كالإسوار المتقدم ، وعلى ذراعها الايسر طرف ثوب تتطاير ثنياته كأنه (السكلاميد) الذي كان يحمله الرجال الرومان على أكتافهم ، ويرى في عدد كبير من تماثيلهم . وتمثالنا هذا مشوه جداً . ويبلغ ارتفاع ما تبقى منه (٠٫٧٠ م) ، وعمق النحت فيه (١٧ سم) .

ز) النصف السفلي من تمثال رجل (اللوح ١١ ، الصورة ٢) ، وهو يلبس ثوباً قصيراً ينحدر إلى ركبتيه فقط . وله ثنيات عريضة ، ولم يبق إلا ساقه اليمنى المحسورة . ويشاهد أن القدم فيها منتعلة خفاً يشبه الخف الذي وصفناه في رجل الرجل الجالس (ب) . ويبلغ ارتفاع ما تبقى من هذا التمثال (١٫١٠ م) ، وعمق النحت فيه (١٧ سم) .

* * *

ويتبين مما تقدم أن كثيراً من الصفات الفنية كالإسوار في الذراع ، والخف في القدم ، واستدارة الثديين (في التماثيل النسائية) وثنيات الأثواب المتموجة وعمق النحت وتكوين الجسم بصورة عامة وغير ذلك ، متشابهة في كل هذه التماثيل ، مما يدل على أن نحاتاً واحداً قام بصنعها كلها . وأن هذا النحات كان سورياً لتأثره كثيراً بمباديء الفن السوري الروماني القديم ، وأنه كان ينظر إلى مبتكرات غيره من الفنانين كالمصورين الذين قاموا بتصوير وتزيين اللوح الجداري المتقدم .

* * *

٢٧ — النوافذ الجصية المخرمة التي أعيد إنشاؤها في المتحف :

ويتألف قسم كبير من الزخارف الجصية المحفورة التي أعيد إنشاؤها ، من النوافذ نصف المستديرة ، التي تنتهي باستطاليتين أفقيتين في أسفلها ، أو النوافذ ذات الشكل المستطيل . وقد وجدت هذه النوافذ ترتكز على عوارض خشبية فوق أبواب مداخل القاعات الوسطى في البيوت المشرفة على الباحة الداخلية ، أو على مداخل الحجرات المتصلة بها . ويلاحظ أن هذه النوافذ كانت محطمة إلى عدد كبير من القطع ، التي انهارت على أرض القاعات والحجرات ، وأنه لم تبق منها عالقة في محلها إلا النافذة ذات الرقم (٩) . وتختص كلها أن أبعادها مختلفة جداً ، ولا يشبه بعضها بعضاً حتى في القاعة الواحدة . كما أن مواضيع زخارفها متنوعة جداً ، ففيها المواضيع

الهندسية والنباتية والحيوانية وغيرها التي تدل على سعة آفاق الفنانين الأمويين وحريتهم في انتقاء ما سيحلو لهم من عناصر الطبيعة ومبتكرات الفكر . وهذا ما ساعد على امكان إعادة انشائها ، وذلك بأن فرقت القطع المتشابهة الى مجموعات ، كانت كل منها أساساً لترميم نافذة من النوافذ .

٢٨ — نوافذ القاعة (٦) :

وأجمل النوافذ التي تمكننا من اعادة انشائها ، وجدت أجزاؤها مبعثرة في أرض القاعة (٦) . ولا ريب أنها كانت تزين أبواب هذه القاعة وأبواب قاعة الطابق العلوي التي فوقها . ويلاحظ أننا لم نتمكن من تعليق كل نوافذ هذه القاعة (٦) في مواضعها ، واننا اضطررنا لسد كل حاجاتنا منها الى الاستعانة بنوافذ بعض القاعات الأخرى التي تتفق نسبها مع أبعاد هذه الأبواب .

٢٩ — النافذة ذات الرقم (٣) :

كانت هذه النافذة تزين مدخل الحجرة (٨) المشرفة على القاعة (٦) . ويبلغ ارتفاعها (١،٥٤٢ م) ، وعرضها (١،٠٧٧ م) ، وسمك إطارها (١١،٥ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٦ سم) . ويلاحظ في وجوه هذه النافذة بعض آثار سوداء ناتجة عن حريق نشب قبل انهيار القصر (اللوح ١٧ ، الصورة ١) .

وتتألف زخرفة إطارها من عناصر منتزعة من شوكات اليهود ، ومنظمة بصورة متناظرة على طرفيه ، بحيث أنها تتلاقى في وسطه . أما زخرفة قسمها الأوسط فمنشأة على مبدأ دائرة وسطى في المركز ، وتتركب عليها ثماني دوائر أخرى متماثلة ذات أقطار واحدة ، حسب محورين متقاطعين بزوايا قائمة . وتتألف محيطات هذه الدوائر من أشرطة ذات ثلاثة خطوط بارزة متوازية . ثم تقطع هذه الدوائر خطوط مائلة تؤلف فيما بينها مربعات صغيرة مائلة ، وتقسم سطوح الدوائر المتقدمة . ويلاحظ أنه ينشأ في وسط كل مربع ، وعلى أطراف الدوائر المتقاطعة زهرات لكل منها أربع تويجات .

٣٠ — النافذة ذات الرقم (٩) :

كانت هذه النافذة تزين مدخل الحجرة (٢) المشرفة على القاعة (٦) . ويبلغ ارتفاعها (١،٥٤٨ م) ، وعرضها (١،٠٧٧ م) ، وسمك إطارها (١٤ سم) ، وسمك قسمها الأوسط

(٧ سم) . وهي النافذة الوحيدة التي عثر على إطارها قائماً في مكانه كما ذكرنا . ولم يعثر من قسمها الأوسط إلا على بضعة قطع صغيرة ساعدت على إنشاء موضوع زخرفتها (اللوح ١٧ ، الصورة ٢) .

وتتألف زخرفة إطارها من ثماني وعشرين زهرة ممثلثة . كل منها محصور ضمن مربع يحيط به حدان بارزان متداخلان . وهذه الزهرات متناظرة في طرفي الاطار . أما زخارف القسم الأوسط ، فهي منشأة على مبدأ دائرة مركزية متوسطة ، تحيط بها دائرة قطرها أكبر من قطرها . وتقسم الى أربعة أقواس متناظرة ، ولها نفس المركز . ثم تتكرر هاتان الدائرتان في اتجاهات محورين متعامدين . وتتصل الدوائر الصغرى ببعضها عن طريق حلقات صغيرة متماسة معها .

٣١ — النافذة ذات الرقم (٩١) :

عثر على أجزاء هذه النافذة في القاعة (٥٥) من القصر . ورؤي أن تعلق على باب الحجرة (١٤) المشرفة على القاعة (٦) . ويلاحظ أن هذا الباب قد سد في بناء القصر الأصلي ، بعد انتهاء أعمال البناء . ويبلغ ارتفاعها (١٫٣٤ م) ، وعرضها (١٫٨٦ م) ، وسمك إطارها (١٢ سم) ، وسمك وسطها (٥ سم) ، (اللوح ١٨ ، الصورة ١) .

وتتألف زخرفة إطارها ، كإطار النافذة المتقدمة من تتابع زهرات مثلثة محصورة ضمن مربعات صغيرة . إلا أن هذه المربعات محاطة فقط بخط بارز واحد . وتتلخص زخارف قسمها الأوسط بعدد من الحلقات المستديرة المتشابهة المتشابكة ، التي تنقسم كل منها إلى أربعة أقواس متقابلة . ويتخللها مربعات حادثة من تقاطع خطوط مستقيمة مائلة ، بزوايا قائمة .

٣٢ — النافذة ذات الرقم (١٢) :

التقطت أجزاء هذه النافذة من أرض القاعة رقم (٦) ، وعلقت بعد إعادة تركيبها على مدخل الحجرة (٤) . ويبلغ ارتفاعها (١٫٤١ م) ، وعرضها (١٫٩٤ م) ، وسمك اطارها (١٢ سم) ، وسمك قسمها الأوسط (٦ سم) . ويلاحظ على ما تبقى منها آثار حريق سوداء (اللوح ١٨ ، الصورة ٢) .

وتتألف زخرفة إطارها من أوراق نباتية لوزية مزدوجة تمتد في جانبه بصورة متناظرة ، ورؤوسها الى الأعلى . ويسود في قسمها الأوسط مبدأ المربعات المائلة المتوازية التي يتشكل

على رأس كل منها مربع صغير مقسوم الى أربعة أقسام . ثم يحاط كل مربع صغير بدائرة . وتتصل هذه الدوائر ببعضها بتماسها مع دوائر أصغر منها .

٣٣ — النافذة ذات الرقم (٧٣) :

إن هذه النافذة من أجمل نوافذ قصر الحير الغربي وأكبرها حجماً وأغناها بالمواضيع ، وقد جمعت أقسامها من أرض الحجرة (٢٩) وأعيد أنشاؤها ، ثم علقت فوق باب القاعة (٦) المطل على الباحة الداخلية . ويبلغ ارتفاعها (١٫٥٤ م) ، وعرضها (٢٫٤٢ م) ، وسمك اطارها (٩٫٥ سم) ، وسمك قسمها الأوسط (٥٫٩ سم) . ويتجلى فيها فن التأليف بأجلى مظاهره ، وتجتمع فيها مواضيع حيوانية ونباتية وهندسية مختلفة . وهي أحسن الأمثلة التي تدل على فن النحت عند الأمويين (اللوح ١٩ ، الصورة ١) .

ويتألف اطارها الخارجي من صفين من الزخارف الجميلة . أولهما ضيق ، وفيه وردات متسلسلة ، لكل منها ست تويجات ، والثاني فيه عروق نباتية تتقاطع على أشكال بيضوية متوالية . وفي كل من هذه الأشكال إما ورقة من أوراق الكرم وورقة أخرى أو ورقتان نباتيتان ، وإما شكل حيواني لحرذون أو طاووس أو طائر آخر . أما زخارف القسم الأوسط من هذه النافذة فتتألف من دوائر متداخلة ومنشأة على محاور متوازية شاقولية وأفقية . ويلاحظ أن كلاً من هذه الدوائر تتقاطع مع ست دوائر أخرى ، وأنها تحوي في وسطها وردة ذات ثلاث تويجات .

٣٤ — بقية نوافذ القاعة (٦) :

وقد وجدت أيضاً في ارض القاعة (٦) ، بقايا ست نوافذ أخرى كبيرة ، وثلاث صغيرة ، مما دعا للظن أنها ، ولا ريب بقايا نوافذ القاعة التي تعلو هذه القاعة . غير أن أبعاد هذه النوافذ ، بعد أن أعيد تركيبها ، وإكمال نواقصها لم تتفق مع أبعاد النوافذ السابقة . مما يجعلنا نعتقد أن أبواب القاعة التي العلوية لم تكن ذات أبعاد مشابهة لأبعاد أبواب وقاعات وحجرات الطابق السفلي ، أو أن أوضاع الأولى كانت تختلف عن أوضاع الثانية . ومهما يكن فاننا سنكتفي هنا بوصف هذه النوافذ . وهي كما يلي :

٣٥ — النافذة ذات الرقم (٧) :

وجدت أجزاؤها مبعثرة في أرض القاعة (٦) ، وأعيد تركيبها ، وعلقت على الجدار الشمالي من الطابق العلوي . وهي النافذة الرابعة في الصف الأول من الجهة اليمنى ، ويبلغ ارتفاعها (١٫٥٠ م) ، وعرضها (٢٫٢٦ م) ، وسمك اطارها (١٤ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٦ سم) ، (اللوح ٢٢ ، الصورة ١) .

وتتألف زخارف إطارها من تتابع وتسلسل عدد من الدوائر ذات الأقطار المتساوية الممتدة بين حدي الاطار . وسطوح هذه الدوائر مشغولة بوريقات نباتية مشتقة من وريقات شوك اليهود ، وفي وسط كل منها رأس صنوبر ، أو عرناس ذرة . وقد ملئت أيضاً المسافات بين هذه الدوائر بعناصر أخرى من وريقات الشوك المذكور .

أما زخرفة القسم المتوسط فمبنية على مبادىء الزخارف النجمية المسدسة الحادثة من تقاطع مثلثين متساويي الساقين . وفي وسط هذين المثلثين زهرة ذات ست تويجات أيضاً . ويلاحظ أن هذه الزخارف النجمية مؤلفة من أشرطة لا تتبع في تطورها الخطوط المستقيمة ، بل انها تتحاشى الاستقامة وتتبسط في التسرب والالتواء . ثم تحدث بين الأشكال النجمية زخرفة جديدة قوامها مثلث متساوي الساقين ، في وسطه دائرة وفي أطرافها ثلاث دوائر أصغر منها . وتتشابك زوايا هذه المثلثات كلها وتتصل ببعضها .

٣٦ — النافذة ذات الرقم (٨) :

وجدت أجزاؤها مبعثرة في أرض القاعة (٦) ، فأصلحت وعلقت على الجدار الجنوبي من الباحة . وهي الثالثة في الصف الأول من الجهة اليمنى . ويبلغ ارتفاعها (١٫٤٣ م) ، وعرضها (٢٫٢٧ م) ، وسمك اطارها (١٣ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٦ سم) وتشبه زخارف اطارها وقسمها المتوسط زخارف النافذة (٧) تماماً ، (اللوح ٢٢ ، الصورة ٢) .

٣٧ — النافذة ذات الرقم (١٣) :

وجدت قطعها أيضاً في أرض القاعة (٦) ، وأعيد تركيبها وعلقت على الجدار الجنوبي . وهي الأولى من الصف الأول في الجهة اليمنى . واطارها الخارجي ضيق بالنسبة الى اطارات

النافذتين المتقدمتين ، ولا يبرز الا قليلاً عن صفحة القسم المتوسط ، ويبلغ ارتفاعها (١،١٤ م) ، وعرضها (١،٥٦ م) ، وسمكها (٥،٥ سم). ولا يعرف اذا كانت فوق باب أو نافذة. (اللوح ٢٣ ، الصورة ١).

وتتألف زخارف اطارها من تسلسل زهرات مثلثة ذوات طرفين سفليين ملتويين على شكل حلزونتين. أما زخارف قسمها المتوسط ، فتتلخص بصوف من الوردات المثمنة المتوازية والمتداخلة مع صفوف من الوردات الرباعية التي هي أصغر منها. ويحيط بكل من هذه الوردات أشرطة ذوات حدود متشابكة مع بعضها ، محدثة أشكالاً نجمية مثمنة أو رباعية ، أو معينة مضفورة ، ومتتابعة.

٣٨ — النافذة ذات الرقم (١٤):

وتشبه هذه النافذة النافذة المتقدمة ، من حيث شكلها العام ، وطراز تأليفها. وقد وجدت مثلها في أرض القاعة (٦). وعلقت الرابعة على اليسار من جدار الباحة الجنوبي. ويبلغ ارتفاعها (١ م) ، وعرضها (١،٥٧ م) ، وسمكها (٥،٥ سم). ويشغل اطارها الضيق بصف من الأوراق النباتية المستوحاة من عناصر شوكات اليهود. وتختص زخارف قسمها المتوسط أنها منشأة على مبدأ صفوف من الدوائر المتوازية التي تتشابك قطاعاتها فيتألف داخل كل منها شكلان بيضويان متقاطعان (اللوح ٢٣ ، الصورة ٢).

٣٩ — النافذة ذات الرقم (٢):

وهي نصف مستديرة تقريباً ، وواسعة الانفراج. ولم يعثر في القاعة (٦) على أجزاء كافية من قسمها الأوسط ليصبح ترميمها ممكنا. ويبلغ ارتفاعها (١،٤٢ م) ، وعرضها (١،٧٧ م) ، وسمك اطارها (١١،٥ سم) ، وسمك الأجزاء القليلة من قسمها الأوسط (٦ سم). ويلاحظ على بعض أطرافها آثار لحريق. وهي معروضة حالياً على الجدار الشمالي من البهو الكبير في الطابق العلوي.

وتتألف زخارف اطارها من صفين. الداخلي منها ضيق ومشغول بسلسلة من الزهرات الصغيرة المثلثة ، والخارجي أعرض من الأول ومشغول بورقات متشابهة ومتتابعة ومتماثلة من شوكات اليهود.

* * *

وعثر أيضاً في هذه القاعة على بقايا نوافذ مخرمة صغيرة ، لها أشكال نصف مستديرة ومتطاولة ، وليست لها استطالات مستعرضة . ولم يعرف أين كانت مواضعها . ولعلها كانت تزين كوات كانت مفتوحة في القاعة العلوية ، على الباحة أو في السور الخارجي .

واليكم أوصافها باجمال :

٤٠ — النافذة ذات الرقم (٤) :

وجدت أجزاؤها في أرض القاعة (٦) ، وعلقت بعد اعادة تركيبها في الصف الأوسط من الجدار الشمالي في الطابق العلوي . ويبلغ ارتفاعها (١٫٢٢ م) ، وعرضها (١٫١٠ م) ، وسمك اطارها (١٠ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٦ سم) ، (اللوح ٢٤ ، الصورة ١) . وتتألف زخارف اطارها من صف من البيوض ، ذات الرؤوس المقلوبة الى الاعلى [١] . ثم أن هذه الزخارف تصبح صفاً من المحاريب في القسم الأسفل من هذا الاطار . أما زخارف القسم المتوسط ، فانها تحوي زهرات مثلثة التويجات ، وتقع في أواسط نجوم سداسية . وتتألف كل نجمة من تشابك أضلاع مثلثين متساويي الساقين ، احدودبت أضلاعها وتقعرت وجعلت تنساب على شكل موجات خفيفة ، فتتصل بأضلاع بقية المسدسات ، وتحدث معها موجات شاقولية ومائلة ومتعاكسة .

٤١ — النافذة ذات الرقم (٥) :

وجدت بقاياها أيضاً في أرض القاعة (٦) ، وعلقت بعد اعادة تركيبها في الجدار الشمالي من الطابق العلوي . وهي الخامسة الى اليسار . ويبلغ ارتفاعها (١٫٢٣ م) وعرضها (١٫٠٦ م) ، وسمك اطارها (١٠ سم) ، وسمك قسمها الأوسط (٦ سم) ، (اللوح ٢٤ ، الصورة ٢) .

وتتألف زخارف اطارها من عناصر مرصوصة منتزعة من ورقات شوك اليهود . ويتصدر قسمها الأوسط ، شكل محور عن عنقود العنب [٢] . ويحيط به من الطرفين عروق نباتية متعرجة محورة عن أصول طبيعية . وتحت كل ذلك عروق نباتية تلتف بصورة متناظرة على

(١) إن هذه الزخارف يونانية — اغريقية كما هو المعروف . إلا أن وضعها معكوس هنا .
(٢) يستحسن إجراء مقارنة بين هذا الشكل وأشكال عناقيد الاعناب الممثلة في زخارف خربة المفجر الحصيبة . انظر دراسة هاملتون المذكورة سابقاً .

شكل حلزونتين متصلتين ببعضهما ، ووسط كل حلزونة مشغول بغصن فيه أوراق منتصبة الى الاعلى ، أو مقلوبة الى الاسفل على أشكال رشيقة جداً .

٤٢ — النافذة ذات الرقم (٦) :

وجدت هذه النافذة في أرض القاعة (٦) وعرضت بعد ترميمها الخامسة في يسار الجدار الشمالي من البهو العلوي . ويبلغ ارتفاعها (١٫٣٠ م) ، وعرضها (١٫٠٩ م) ، وسمك اطارها (٩ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٥ سم) ، (اللوح ١٦ ، الصورة ٢) .

وتتألف زخارف اطارها الخارجي من أوراق رمحية الشكل ملتصقة ببعضها ومتراصة ، ويشغل قسمها الأوسط بعروق نباتية تجتمع على شكل أربع حلزونات متناظرة . وفوقها وما بينها مواضيع زخرفية مختلفة محورة عن أصول نباتية .

٤٣ — نوافذ القاعة (٧) :

ان عدد النوافذ التي أمكن اصلاحها وترميمها من قطع الجص المحطمة الملتقطة من أرض القاعة (٧) ، أقل من عدد النوافذ التي أمكن الحصول عليها من القاعة (٦) . وهذه النوافذ هي كما يلي :

٤٤ — النافذة ذات الرقم (٢٣) :

عثر على أجزاء هذه النافذة في مدخل القاعة (٧) المطل على الباحة الداخلية . وتحوي هذه الأجزاء شيئاً قليلاً جداً من زخارف القسم المتوسط . ولم نتمكن من استنتاج شكلها القديم الا بصعوبة بالغة . ويبلغ ارتفاعها (١٫٤١ م) ، وعرضها (٢٦٢ م) ، وسمك اطارها (٨ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٤ سم) ، (اللوح ١٩ ، الصورة ٢) .

وتتألف زخرفة اطارها من ضفائر لكل منها ثلاثة خطوط مستقيمة ، وهذه الضفائر متشابكة مع بعضها بشكل دقيق كأنها (حصيرة) داخل خطين بارزين . وهي تشبه بعض تيجان الأبنية والأقواس البيزنطية . أما زخارف قسمها الأوسط ، فتحوي سبعة صفوف متوازية أفقية من الوردات الثمنة المنشأة ضمن صفوف من المعينات التي يوجد لكل منها اطاران متداخلان ، قد جعلت المسافات بينها على أشكال محفورة .

٤٥ — النافذة ذات الرقم (٢٧) :

وجدت أجزاء هذه النافذة مبعثرة في أرض القاعة (٧) . فجمعت ورممت ، وعلقت في مكانها القديم على مدخل الحجرة (٣) ، المطلة على هذه القاعة . ويبلغ ارتفاعها (١،٣٦ م) ، وعرضها (١،٨٢ م) ، وسمك اطارها (١١،٥ سم) ، وسمك قسمها الأوسط (٦ سم) ، (اللوح ٢٠ ، الصورة ١) .

وتنص زخارف إطارها الخارجي على عدد من الزهرات المثلثة المتتابعة بشكل متعاكس ، دون أن يفصل بينها أي شيء . ويشغل داخلها بصفوف من الدوائر المتشابهة ، والمتشابكة والمتصلة بعضها بصفوف أخرى من الدوائر الصغيرة .

٤٦ — النافذة ذات الرقم (٣٦) :

وجدت اجزاؤها مبعثرة في أرض القاعة (٧) . وأعيـد إنشاؤها ، وعلقت في مدخل الحجرة (٥) ، التي تتصل بهذه القاعة . ويبلغ ارتفاعها (١،٧٣ م) وعرضها (١،٩٣ م) ، وسمك اطارها (١٢ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٦،٥ سم) ، (اللوح ٢ ، الصورة ١) .

واطارها مشغول بسلسلة متتابعة من الدوائر التي يوجد في وسط كل منها شكل وردة هندسية ناشىء عن تداخل عدد من المعينات ضمن بعضها ، ويلاحظ أن هذا النوع من الزخارف مستوحى من زخارف تدمرية ، وجدت على احدى العوارض الحجرية من معسكر ديوكليسيان [١] . يشغل مركز القسم المتوسط من هذه النافذة بنجمة مسدسة ، ضمن دائرة . ويتعاقب هذان الشكلان في مساحة هذا السطح حسب محاور متعامدة ومتوازية .

٤٧ — النافذة ذات الرقم (٢٤) :

التقطت أجزاؤها من أرض القاعة (٧) ورممت ، وعلقت في مدخل القاعة (٩) المتصلة بهذه القاعة ، وهو المكان التقريبي الذي كانت فيه قبل سقوطها . ويبلغ ارتفاعها (١،٤٠ م) ، وعرضها (١،٧٣ م) ، وسمك اطارها (١٢ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٦ سم) ، (اللوح ٢١ ، الصورة ١) .

---

(١) انظر (اللوح ٥٤ ، الصورة Ga) من ألواح كتاب : T. Wiegand, Palmyra, Berlin, 1932.

وتشغل اطارها عناصر متفرقة من شوكات اليهود منظمة على أشكال متعاكسة . أما قسمها الأوسط فملوء بثماني عشرة وردة على أشكال نجوم مثمنة موزعة على خطوط متوازية أفقية وشاقولية . وبينها أشرطة تمتد بتموجات أفقية وشاقولية أيضاً ، فتحدث سلسلة من الأشكال اللوزية التي يتداخل كل اثنين منها فيحدثان شكلاً نجمياً رباعياً .

٤٨ — النافذة ذات الرقم (٢٣) :

جمعت أقسامها من أرض القاعة (٧) وأعيد انشاؤها . ثم علقت على مدخل الحجرة (١١) . ويبلغ ارتفاعها (١،٤٣ م) ، وعرضها (١،٤٥ م) ، وسمك اطارها (١٣ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٦ سم) . (اللوح ٢١ ، الصورة ٢) .

وتتألف زخارف اطارها من ورقات تامة من شوك اليهود ، تتعاقب على التوالي مع زهرات مثلثة ونلاحظ أننا لم نعد قسمها المتوسط الى ما كان عليه ، لعدم وجود عناصر كافية تدل عليه .

٤٩ — بقية نوافذ القاعة (٧) :

وكذلك وجدت في أرض القاعة (٧) قطع صغيرة لنوافذ أخرى فجمعت وأمكن انشاء نافذتين جميلتين منها . وهما النافذتان اللتان تحملان رقمي (٢٥ و ٢٨) .

٥٠ — النافذة ذات الرقم (٣٥) :

ويبلغ ارتفاعها (١،٦١ م) وعرضها (٢،١١ م) ، وسمك اطارها (١٢ سم) ، وسمك قسمها الأوسط (٦ سم) . وقد علقت بعد ترميمها على الجدار الجنوبي من الباحة . وهي الثانية الى اليمين في الصف الأول . (اللوح ١٥ ، الصورة ١) ويلاحظ في جهتها اليمنى أنها غير منتظمة تماماً [1] .

وتتألف زخارف اطارها الخارجي من صفين : الداخلي منهما ضيق ويحوي سلسلة من القلوب الصغيرة المتتابعة ، والاذينات فيها مثقوبة بثقبين ، وهي تحاط بخطين بارزين . أما الصف الخارجي فيحوي عناصر متفرقة من أوراق شوك اليهود .

---

(١) إن الخطأ في تأليف هذه النافذة وصنعها يعود ، إلى الفنانين الأمويين . وقد لاحظنا مثيله في صنع عدة نوافذ أخرى .

ويحوي قسمها الأوسط زخارف هندسية منشأة على مبدأ النجوم التي تحدث كل منها من التقاء مثلثين متساوي الساقين وتشابكهما . وهما يتكرران ويتعاقبان في جميع الاتجاهات . ويلاحظ ان الاضلاع في هذه المثلثات غير مستقيمة بل متعرجة ، وحادثة من امتداد أشرطة ذات حدود ثلاثة .

٥١ — النافذة ذات الرقم (٢٨) :

وجدت أجزاء هذه النافذة أيضاً في أرض القاعة (٧) ، وعلقت بعد اصلاحها على الجدار الجنوبي من الباحة . وهي الثالثة من الصف الثاني الى اليمين . ويبلغ ارتفاعها (١،٥٤ م) ، وعرضها (١،٦٥ م) ، وسمك اطارها (١١ سم) ، وسمك قسمها المتوسط (٥ سم) ، (اللوح ١٥ ، الصورة ٢) .

ويحوي اطارها زخارف نباتية تنص على تعاقب وتسلسل وريقات تامة محورة عن شوكات اليهود . وكل اثنتين منها متعاكستان . أما زخارف قسمها الأوسط فانها منشأة على مبادىء هندسية ، تتلخص في نجوم سداسية ، ويلتف حول كل منها ست حلقات بيضوية .

(بقية البحث في العدد الآتي)

سليم عادل عبد الحق

